يحيى صفوت

صالون غريب

رواية

ساحر الكتب

كيان
KIYAN PUBLISHING

صفوت، يحيى

صالون غريب : رواية/ يحيى صفوت.

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2025.
240 صفحة، 20 سم.
ردمك : 978-977-820-263-2
ا- القصص العربية
ب- العنوان : 813
رقم الإيداع : 32510 / 2024.
الطبعة الأولى : يناير 2025.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم- محافظة الجيزة.
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

رواية

صالون غريب

أخطأت حين سلمته رأسي

يحيى صفوت

( )

من مميزات أن تمضي حياتك وحيدًا أنك تعلم كل تفصيلة في بيتك، عدد الأشياء وأنواعها، ترتيب الوسائد والملابس، أماكن الأطباق والأدوات، فلن يسعفك أحد إن تاه منك شيء.

والميزة الأخرى هي أنك تعلم أن هذا الصوت الذي يخرج من غرفة النوم غير منطقي، فمن الذي يتقلب على فراشك المزعج غيرك؟

هكذا يدور بذهني قبل أن أجفل مذعورًا حين يدق هاتفي المحمول فى يدى وأكاد أن ألقى به من النافذة من الطابق الثالث، دون أن أصرف بصري عن غرفة النوم التي ينيرها مصباح خجول، رفعت الهاتف لأجيب، صوتي مرتعش مثل مفاصلي:

-ألو... مين معايا؟

أنتظر للحظة، تتحفز فيها عضلاتي من طول صمته، قبل أن يأتيني الرد، بصوت حيادي، لا ميزة فيه ولا إحساس:

-ألو... مين معايا؟

رغم ضوء الصالة الضعيف، لكني ألمح شعر يدي الكثيف وهو يقف وأصابعي تنقبض لتحيط بهاتفي كأنها تعتصره. أنظر للهاتف لأقرأ الرقم، أشعر أني أعرفه، قبل أن أضعه على أذني مرةً أخرى وأسأله:

-بتكرر كلامي ليه؟

-بتكرر كلامي ليه؟

هكذا يعيد من يقف على الطرف الآخر ما قلته لتوي، حتى جنسه،

ليس واضحًا إن كان ذكرًا أم أنثى. ثم تجحظ عيناي مرةً واحدة، تحدقان بمحتوى غرفة نومي، إلى الراقد على الفراش، الذي يعتدل جالسًا... ويواجهني.

وحين أرى وجهه أفهم ما يحدث.

أفهم أكبر خدعة قام بها إنسان.

والتي كنت ضحيتها.

(1)

والد خطيبتي اسمه سراج، وهو لا يطيقني.

مهما حاولت معه، مهما جئت بكعك أو قطع جاتوه أو هدايا غالية، مهما حفظت من نكات أو قرأت من مقالات علمية لأبهره بمعلوماتي، مهما حاولت متابعة أخبار كرة القدم - رغم كرهي لها - لأشجع معه فريقه دائم الخسارة، سواء جئت في ميعادي أو قبله، أنيقًا أم بزيّ الموقع المغطى بالتراب، النتيجة دائمًا واحدة، يكفهر وجهه في اللحظة التي يلمحني فيها كأنني قد خرجت لتوي من بالوعة ورائحتي تسبقني، صرصورًا يجب أن يستقبله بنعله وليس بكفه الممدود.

يُشعرني دائمًا أنني غير مرحب بي، ربما هو لا يرضى عن كوني مهندسَ اتصالات بسيطًا، لا عائلة لي ولا سند، موظفًا قصيرًا لا يصل إلى ثلاثة أرباع طوله الفارع، غير لائق في نظره سواء بدنيًا أو ماديًا أو علميًا، بينما هو جراح عظام شهير له ثقله، أو يراني جئت لأختطف ابنته ذات الثلاثين ربيعًا وأهرب بها لقارة أخرى، ثم أطلب منه فديةً.

«تزغده» طنط سامية، حماتي المستقبلية، ليفرد «بوزه» الذي يكاد يصطدم بجبهتي، وتقول:

-ما تخف على الراجل يا سراج، يووه.

تنشق شفتيه عن ابتسامة مخيفة لتظهر أسنانه شديدة البياض التي تتعارض مع بشرته السمراء ويدق كتفي بكفه العملاق قائلًا:

-فتوح بيحب الهزار، مش كده؟

لكنه أقرب إلى تنمر عن مزاح، سخافة تلميذ ضخم على زميله ضئيل الحجم، يناديني بـ«فتوح» بدلًا من «فتحي» فقط كي يستفزني، ترتعش شفتي بابتسامة بائسة وأدلّك كتفي المسكين قائلًا:

-ط... طبعًا، أكيد يا حمايا.

يكفهر وجهه مرةً أخرى حين أغيظه بتلك الكلمة فيضغط بأصابع كالكلابات على كتفي حتى أسمع طرقعة خافتة، «تزغر» له طنط سامية مرةً أخرى فيربت على كتفي ويبتسم ببراءة، كتمت ألم كتفي وكبريائي، لأن كله يهون من أجل زينة.

زينة بطلتي الرياضية وزميلة الدراسة، الشيء الوحيد الذي كنت أشعر أن دكتور سراج محق فيه هو أن لا أنا ولا غيري يستحقها، لكنها اختارتني لسبب لا يعلمه إلا الخالق، تقول طنط سامية أنها دعوات أمي رحمها الله بينما تقول زينة أن حناني وكرمي لا يضاهيهما شيء.

كان رأسي دائمًا مشغولًا بها، أتخيل وجهها الدائري وعيونها الواسعة وشعرها الكثيف الأسود الفاحم الذي كانت تظلمه بعقصة فوق رأسها، بشرتها الخمرية وقوامها الرياضي الممشوق الذي يقترب من طولي، أي ما يقرب من المائة وخمسة وسبعين سنتيمترًا، سرعة بديهتها وشجاعتها في اتخاذ القرارات، ماذا تفعل مع مخلوق هلامي مثلي؟ كائن ساخر من نفسه ومن الدنيا، أقصى طموحه هو أن يجلس معها في الشرفة مع البطيخ والجبن نتأمل الخلق ونضحك

على تفاهتنا.

لكن يجب أن أعترف، زينة هي المحرك الذي يحركني ويدفعني للأمام، كان عشقي لها هو الوقود الذي يجعلني أستيقظ كل يوم مبتسمًا ببلاهة رغم مصاعب الزمن وابتلاءاته، هو ما كان يحثني على التفاني في عملي والطموح للترقي والتميز فيه، أيًا كان السبب، فقد جعلتني زينة شديد الامتنان، شديد التفاؤل، كنت مثل شخصية «عاطف» في فيلم «الناظر صلاح الدين» كما كان حمايّ العزيز يقول.

ولهذا فقد كنت أسعى بكل جهد أن أنهي عملي في ذلك الموقع النائي قبل موعد التسليم، وعلى أفضل وجه، أو ربما كان بسبب شوقي لابتسامة زينة التي تنتفخ معها وجنتيها وتتورد، أو خوفًا من لسان دكتور سراج اللاذع لو وصلت متأخرًا، فاليوم بالأخص ستكون أسنانه البيضاء أكثر طولًا وحدةً، اليوم سنقرأ الفاتحة، ولا أريدها أن تكون على روحي.

***

وكما ابتلاني ربي بدكتور سراج في أسرتي المستقبلية، ابتلاني بالعم «تؤ» في عملي، مهمتي كمهندس اتصالات، أن أتأكد من اتصال أبراج المحمول بعد الانتهاء من إنشائها وتجهيزها، والعم تؤ، أو عم مرسي، هو سائقي الخاص، خمسيني ضئيل الحجم محني الظهر دائم العبوس، لديه شارب هائل يكتم معظم ما يقول وعيناه الضيقتان تائهتان دائمًا في اللا شيء.

لحكمة ما لا يعلمها إلا الله، صار هذا الكائن الكئيب رفيقي الوحيد في أمسيات لا حصر لها، مما ضاعف من شعوري بالوحدة والانعزال،

يبقى معي حتى أنتهي من مراجعة ما تم من أعمال وتمر أسابيع دون أن أرى غيره، يشعرني أنه يفعلها جِميلًا لي وليس واجبًا عليه ولهذا فهو دائمًا يضغط على أعصابي، لا يتكلم كثيرًا، لكنه حين يفعل في الأغلب يكون بعد أن ينفذ صبره من امتداد ساعات العمل بما لا يحتمله ويكون في شكل كلمة واحدة، فبعد ساعات من الصمت والنظرات الزجاجية لكل ما يحدث حوله وزفرات حارقة تتسلل من أسفل شاربه العملاق الذي يحتل نصف وجهه عصفوري الملامح، يهز رأسه مثل الهنود ويتمخض وهو يأخذ شهيقًا عميقًا قبل أن ينطق بـ: «تؤ».

لكنه لا يتمادى أكثر من هذا، وفي الحقيقة هو لا يحتاج أن يفعل، فكمية القرف والكآبة التي تخرج من هذين الحرفين قادرة أن تجعلك تقطع شراييناك، ينقل بعدها غيار السرعة ويتجه للبرج الذي أوجهه إليه.

وهناك تفصيلة أخرى لا تقل عن كآبته ثقلًا، فهو كان مولعًا بعيدان الريحان ومحيلتها من الأعشاب الطبيعية، منها من أعرف ومنها من كنت أظنه شيطانيًا من مظهره العشوائي قاسي الشوكة، ومن عادات تؤ اللعينة أنه كان يربط حزمةً من تلك الأعشاب «لتعطر» رائحة السيارة، وهو ما كان منافيًا للواقع بالطبع، فلم أكن أشم سوى مزيج من رائحة «السباخ» الحيواني والقش الجاف المحترق.

يقولون أنه من «العرب» أو «العرباوية»، من إحدى تلك العائلات التي كانت تسكن المنطقة قبل أن يزحف إليها العمران، هذا كان سببًا آخر لاحتقاره لشركتي في العموم ولي بالأخص، فهم يعتبرون أن

الأرض ملكهم وأننا ضيوف ثقال مآلهم إلى الرحيل، وقد كان تعيينه كأحد سائقي «الحملة» شرطًا لحفظ السلام، ابتلاء من ربنا لصاحب الشركة قبل أن يتخلص منه ويدفع به في طريقي.

العم تؤ لديه قاعدة واحدة، مهما تكرر مرورنا بموقع ما كي أتأكد وأعيد التأكد ثم أتأكد مرةً أخرى من كفاءة النظام وقوة الإشارة فهو ينفذ الأمر بنفس مستوى الامتعاض، سواء في المرة الأولى أو الخامسة، لا فارق، لكنه لم ولن يروح ويجيء بين برجين أكثر من ست مرات، وفي السابعة: «تؤ»، لكن «تؤ» هذه المرة ليست اعتراضًا مبهمًا أو صوتًا يدل على مزاج معكر، لكنها تعني ببساطة: «لاء، هذه كانت آخر مرة، ولو أردت أن تعود سيتوجب عليك استقلال سيارة أجرة أو دعك مصباحك السحري ليأتيك خادمك الجني». دومًا عند المرة السادسة، كأن هناك نبوءة سوداء ستتحقق لو عدنا لبرج ما للمرة السابعة.

يطلب بعدها استراحة، حتى لو كان قد انتهى منها لتوه، يقطع تسلسل العمل بكوب شاي أقرب لقطران مغلي، يشربه بمزاجٍ وبطء شديد حتى يغيظني، قبل أن ينطق بكلمته الأثيرة وينهض متثاقلًا كذكر حيوان الكسلان لنعود لما كنا نفعله.

لكن هيهات، ليس اليوم، فأنا لن أجازف بالتأخر في العمل والتعرض لنقد دكتور سراج اللاذع.

سددت فتحتيّ أنفي بكفي بحركتي الخبيثة المتكررة كي أرحمها من رائحة حزمة الأعشاب الجهنمية - كعادتي - وتظاهرت بالعبث في الراديو الذي تعطل والتصق بالقناة«006»، وحين فقدت الأمل

في تحريك مؤشر القنوات اضطررت أن أستسلم لقدري وأستمع لصوت «المنيرة المهدية» الذي خرج مشوهًا كعويل الأشباح حتى نصل لبرج المحمول في نهاية الشارع في سلام، المنطقة كانت أحد الأحياء السكنية الجديدة خارج العاصمة والذي لا يزال غير مأهول، والمطلوب مني أن أقوم بتشغيل برجيّ المحمول والتأكد من اتصالهما وقوة الإشارة بينهما.

يعلم العم تؤ أن قراءة فاتحتي اليوم وأنني سوف أصر أن ننهي العمل في نوبة واحدة دون أن نقطعه، ولهذا فقد كانت «تؤ» تتكرر أكثر من المعتاد تمهيدًا لما هو قادم، ظل يشتكي من عناء القيادة في شارع واحد لا يزيد طوله عن الكيلومتر ولمدة تزيد عن الأربع ساعات، قضى معظمهم جالسًا خلف مقود القيادة يلعب في شاربه ويراقب الكلاب الضالة.

بلغنا المبنى المهجور حيث ينتظرنا البرج على سطحه، صعدت إليه وولجت على اللابتوب وقمت بقياس قوة الإشارة قبل أن أغلقه وأنزل للعم تؤ لآمره أن يعود بنا إلى البرج الآخر، فما كان منه سوى أن اعترض بنبرته الحيادية:

-الساعة خمسة ونص.

-معلش يا مرسي، مش هينفع أتأخر النهارده.

-نكمل بكرة.

-بكرة أنا أجازة وهنجيب دبل الخطوبة، عقبال ولادك.

-ناخد استراحة ونشرب شاي.

-شاي إيه؟ بقولك قراية فتحتي النهارده، اطلع على البرج.

قلتها وصعرت له خدي لأنظر من النافذة، لم يأتِ بأي حركة وشعرت أنه يحرقني بنظراته.

-يا باشمهندس إحنا لفينا في الشارع ده خمس مرات.

-معلش يا مرسي قولنا.

في الأغلب سبني في سره قبل أن يشعل المحرك، لكني تجاهلته وبعتت لزينة رسالة أنني سأكون في موعدي مهما حدث، سرنا في الشارع غير المأهول وسط العمارات ذوات الجدران الخرسانية العارية لنعود لبداية الشارع، حيث تنتظرنا النخلة الصناعية التي هي في حقيقة الأمر برج محمول، ولجت على الشبكة من اللابتوب وقمت بتحليل الإشارة بين البرجين قبل أن أدخل بعض الأكواد وأنتظر أن تتفعّل، تمنيت أن يؤدي الغرض لكن كان حتمًا عليّ أن أذهب مرةً أخرى للبرج الآخر، نظرت لتؤ لأجده يحدق بي كأنه سيأكلني، لكن لا مناص، خرج صوتي مبحوحًا:

-ل... لازم نرجع للبرج التاني.

ظل محدقًا بي لثوانٍ دون أن يبدي أي رد فعل قبل أن يمد يده لهاتفه المحمول ويطفئ المحرك، حدقت به بدون فهم وهو ينزل من السيارة ويتجه بكل برود للكاراڤان الأبيض الذي يخدم كمكتب مؤقت لموظفين الشركة، أخرجت رأسي من النافذة وناديت عليه بأكثر نبرات صوتي عمقًا وخشونةً.

-مرسي! مش هينفع النهارده الدلع ده!

-نكمل بعد الراحة يا باشمهندز، الدنيا مش هتتهد.

هتفت به وقد احمر وجهي اللحيم.

-لأ هتتهد، وبعدين إنت هتمشّي الشغل على مزاجك يا جدع إنت؟!

سكت ولم يجب، بل أنه جذب كرسيه البلاستيكي وجلس عليه ثم أشعل سيجارة ووضع العلبة على الطاولة المعدنية التي تشبه طاولات المقاهي، ثم مد يده لبراد الشاي وهو يقول:

-نصيحة يا باشمهندز، لما عرباوي يقولك بلاش نمشي المشوار ده يبقى تسمع كلامه.

-وهو العرباوي هيعلمني شغلي؟

-لأ، بس فيه حاجات إحنا عارفينها متعرفوهاش إنتم.

هكذا أجابني بكل بروده وبصوته الناعم المستفز وهو يهز رأسه مثل الهنود، التقطت هاتفي المحمول وقمت بمكالمة سريعة للرئيس دربالة كبير العرباوية فما كان منه سوى أن أكد على صحة موقف مرسي، بل وأضاف:

-مفيش عرباوي هيروح ويجي في شارع واحد سبع مرات ورا بعض يا بيه، خصوصًا لو شارع مهجور.

-ليه إن شاء الله؟ فال وِحِش؟

سألته هازئًا ليجيبني بكل برود:

-حاجة زي كده.

وأنهى المكالمة، شيء ما في كلامه جعل غضبي يتلاشى، يحل مكانه الفضول، لكن كبريائي منعني أن أسأل، نظرت في ساعتي لأجد أن الوقت ينفذ وميعادي مع أهل زينة يقترب.

-ماشي يا مرسي.

فتحت الباب بعنف ونزلت لأدور وأجلس خلف المقود وأنا أعطي تؤ نظرة توعد، تأملني وهو يهز رأسه كأنه يراقب طفلًا عنيدًا قبل أن ينهض ويلوح لي كيلا أفعلها أو هكذا ظننت من حركات يديه، سمعته يهتف بشيء لم أستبينه لأنني كنت قد انطلقت بالسيارة لأذهب للبرج الآخر.

***

لا أدري ما الذي حل بي بعدها، هل كان القلق هو ما جعلني أرى السماء تغيم بسرعة مضاعفة والشمس تتعجل الغوص في الأفق؟ هل بلغ بي التوتر أني أرى السحب تتسارع فوقي والظلال تتراقص وتغير زواياها كأنني في فيلم تتوالى مشاهده بإيقاع سريع؟ هل كانت الكلاب تجري لتختبئ أم أن خوفي من لسان دكتور سراج ونظرات زينة هو ما جعلني أشعر أن محيطي قد تلون بتلك الهالة الكئيبة المقبضة التي لا صوت لها؟

كان كل شيء يبهت من حولي، إلا تلك اللافتات الصدئة... من أين أتت؟ أنا موقن أنها لم تكن موجودة من قبل، لم أستطيع قراءة المكتوب عليها لوصولي وجهتي، تجاهلت كل هذا لحظة دخولي المبنى الخرساني المهجور وركضت صاعدًا للسطح قبل أن يبتلعني ظلام الليل العجول وأتوه في المبنى المخيف.

لم يكن الأمر بالسهولة والسرعة التي تمنيتها، وسرعان ما أدركني المساء وأنا أحاول فض اشتباك الشبكات الأثيرية لأتحول إلى كتلة من التوتر، تصبب العرق على جبهتي وأصبحت أنظر لساعتي كل دقيقة لأرى قبري يزداد عمقًا على يد حمايّ العزيز، في النهاية استسلمت بعد أن يئست من الانتهاء من المرحلة الأخيرة والتأكد أن البرجين يصلان ببعضهما لاسلكيًا.

أغلقت اللابتوب بعنف وزفرت حنقًا وأنا أتخيل «الزفة» التي سيستقبلني بها دكتور سراج، وكيف سيفوت الفرصة وأنا قد جئت له متأخرًا وفي هذه الحالة المزرية، وفي هذه الليلة بالذات، ليلة قراءة الفاتحة، ليس أمامي الوقت الكافي للمرور بالبيت والتأنق للقاء المخيف ولا التوقف عند الحلواني في الطريق، لكن لا مناص، هذا وسوف أذهب إليهم بسيارة نصف نقل، سيلوكني سراج كالعلكة ويهتك عرض كرامتي سخرية.

ثم رأيته.

في نور ما بعد الغروب، خطفت ألوانه بصري في اللحظة التي خرجت فيها من المبنى، خصوصًا وأنه المحل الوحيد ذو الجدران المطلية والتشطيب الفاخر، ولافتة نيون خضراء يحيطها اطار بنفس اللون تقول:

«صالون غريب».

حلاق؟ وفي هذا المكان المنعزل؟

ذهبت لأضع اللابتوب في السيارة النقل دون أن أحول عينيّ عن

الكوافير الرجالي الذي ظهر من العدم. ربما كنت منشغلًا بما في يدي وباللقاء الأهم في حياتي ولم أره، لكن سبع مرات؟ لقد قطعت هذا الشارع ذهابًا وإيابًا حتى أنهكته، كيف لم أنتبه إليه في الأساس؟ لكنه جاء في وقته.

لا شعوريًا عبرت الشارع الذي لا يسكنه سوى نسمات هواء ترابية وعواميد إنارة بلا مصابيح، تلك اللافتات التي ظهرت من العدم والتي يبدو أن عليها آيات قرآنية، حتى إطارات الإعلانات فارغة، فمن يضع إعلانه في هذا المكان القفر؟ وهذا الحلاق كذلك، لمن يحلق؟ الكلاب؟

وقفت أمام الواجهة الزجاجية أبحث عن صاحب الدكان لكني لم أرَ سوى لوحة من الظلال صنعتها أضواء اللافتة لكرسي ضخم وستائر وأشكال أخرى لم أستبينها، ثم جفلت حين لمحت أحدهم يقف في الظلام، هيئة شخص لم أدرِ إذا كان ينظر إليّ أم يعطيني ظهره ولا سبب وقوفه ثابتًا بهذه الصورة، وبدون إنذار، تقدم هذا الشخص وأضاء نور المحل.

ارتبكت حين استقبلني توأم الفنان «إستيفان روستي»، نفس الوجه المثلث الطويل والشارب الرفيع المنمق، ينحني بإيماءة خفيفة بينما التصقت عيناه العميقتان بشخصي الكريم، كهل خمسيني رشيق يرتدي مئزرًا أخضر فوق قميص أبيض وبنطالٍ رمادي، يضع يده اليسرى خلف ظهره في كياسة واحترافية رئيس خدم ملكي وهو يدفع بيمينه الباب الزجاجي دون كلمة واحدة، لحس شاربه الرفيع وبرمه بأصابعه قبل أن يعطيني ابتسامة متزنة ليس لها لون

ويضع مقصه في جانبه كأنه يضع سيفه في غمده، منتظرًا خطوتي التالية.

نظرت في ساعتي ثم جلت ببصري حولي، لا أرى أي مظهر من مظاهر الحياة، كما أنني لا أرى حلًا آخر، هذا الحلاق هدية من السماء، فرصتي الوحيدة للتأنق وهندمة نفسي قبل أن أقابل سراج المتنمر، بادلت الحلاق انحناءته بأخرى قبل أن أتقدم لأدخل المحل وتصدر الأصابع المعدنية المعلقة فوق الباب صليلًا مميزًا لحظة دخولي.

-يا نزهي! شاي للمسيو!

هكذا نادى على من ظننت أنه مساعده فبادرته قائلًا:

-مفيش داعي، أشكرك، شربت كمية شاي تكفي بلد.

لوى شفتيه باستياء غير مبرر قبل أن يشير للكرسي الوحيد الذي يتوسط المحل.

-براحتك، اتفضل، أؤمر؟ غريب معاك «يعرف نفسه».

جلست على الكرسي ونظرت إليه في المرآة لأجد... أنه لا يوجد مرآة.

لاحظ غريب استغرابي فقال:

-في الخطة إن شاء الله، الدكان ده مبقالوش أسبوع، وبعدين متقلقش، المرايا دي علشانك إنت، الحلاق مش بيحتاجها.

لمحته يضع نظارة ذات إطار أسود على طرف أنفه المدبب ويلتقط

مئزرًا أخضر عريض، قام بفرده فوقي وعقده خلف عنقي، جُلت بعيني في الدكان حولي، بقدر ما يسمح به وضع رأسي الثابت، لأجد صورًا فوتوغرافية لغريب في مراحل عمرية مختلفة مع عدد من الزبائن السعداء معلقةً فوق حوض الاغتسال، وهناك ستارة خضراء إلى يساري تخفي جزءًا خلفيًا من المحل يظهر تحتها أدوات نظافة، إضاءة المكان كانت مريحة للعين، استخدم فيها مصابيح صفراء قوية موزعة على السقف بدقة وهناك أريكة من الجلد يمكنها ابتلاعك لو جلست عليها من ضخامتها وليونتها، دكان حلاق تقليدي رغم غرابة موقعه.

-شعر ودقن، ولو ينفع فوطة ساقعة بعدها أبقى شاكر.

استلّ مقصه من جانبه كما يفعل محاربو «الساموراي» وقص الهواء ثلاث مرات بسرعة كنوع من أنواع الإحماء، انحنيت لا إراديًا لينهرني قائلًا:

-متخفش يا مسيو، إجمد أومال، محسوبك قديم.

حاولت أن تخرج نبرتي عنيفة من غيظي منه لكنها خرجت رفيعة مضحكة:

-عندي مناسبة مهمة النهارده، أرجوك، خلي بالك.

بدأ يعمل مقصه في شعري قائلًا:

-عندك مناسبة مهمة وجاي آخر الدنيا تحلق؟

-يعني إنت فاتح دكان في مكان مفيهوش صَرّيخ ابن يومين، ومستغرب إن جالك زبون؟

لحس شاربه الرفيع مرةً أخرى قبل أن يقول:

-دي قصة طويلة يا مسيو.

-يا عم إحكي، ما أنا مرزوع قصادك أهوه.

تسمرت يده للحظة لكني لم أرَ تعبير وجهه، قبل أن يستكمل عمله قائلًا:

-أنا أصلي كنت حلاق صحة، من بلد بعيدة، شغلانة قديمة شفت فيها كتير، كتير أوي، وتعبت. قلت أبعد قبل الشغلانة ما تقصف عمري.

توقف عن قص شعري ونظر خارج المحل عبر الواجهة الزجاجية.

-شفت إيه يعني؟

عاد إليه حماسه والتفت إليّ.

-هحكيلك، تشرب إيه الأول؟ شاي؟ يانسون؟ يا نزهي!

-يا سيدي مش عايز حاجة.

عاد ليقص شعري مرةً أخرى قائلًا:

-يا مسيو، الزبون له عند حلاقه سبع حكايات، ده سلو الكار، الطريق قصادنا طويل.

-وأنا هقعد لغاية ما تحكيلي سبع حكايات؟! بقولك عندي حاجات مهمة، وبعدين إشمعنا سبعة؟

شعرت به يبتسم فالتفتُ إليه لكنه دفع ذقني.

-هتجرح نفسك يا مسيو، خليني أحكيلك القصة التانية، علشان تحكم بنفسك.

-والأولى راحت فين؟

تجاهل سؤالي وبدأ يقص عليّ...

أغرب ما سمعت.

يا شمس يا شموسة

(2)

غريب يحكي...

الواد سويلم ده كان بومة، ما شاء الله عليه، كان يقفل بلد من بابها.

رغم أنه ابن مصيلحي «الزرايبي»، مساعد أبي الذي ورثت عنه صنعة حلاق الصحة، لكنني كنت كلما لمحت طيفه يركض حافيًا في طرقات البلدة متجهًا إلى دكاني ولسانه يتدلى خارج فمه كالكلب اللاهث حتى تنقبض أمعائي متوقعًا أسوأ الأخبار، فالأسبوع الماضي جاءني بخبر «بهيمة عبيدة» التي غُلقت في حبل يربطها بشجرة بيته، كان خوارها يصل إلى آخر البلد وحين بلغتها كانت قد اختنقت وصار لونها أزرق داكنًا، والأسبوع السابق له جاءني مبتسمًا في بلهٍ وهو يقول لي أن «بهانة بت عوض» قد وضعت مولودًا ثامنًا، لكنه نزل منها ميتًا مثل من سبقوه، والأسبوع الذي يسبقه أتحفني بخبر عوض نفسه الذى انسحقت ساقه فى الطاحونة.

كما قلت لك، سويلم ده بومة، نذير شؤم ترتعش ساقيّ حين كنت أسمع صوته الأخنف ينادي عليّ من وراء الباب، وهذا ما حدث ليلتها.

كنت قد أغلقت الدكان وعكفت على تنظيف أدواتي وأنا أدندن بأغنية للست «منيرة» حين سمعت نعيقه، دخل عليّ لاهثًا كالعادة و«مشلحًا» جلبابه حتى أسفل عورته بمليمترات لكن قبل أن أسبه وأقذفه بما في قدمي كي يحتشم، فُوجِئت بوجه غير مألوف يطل من فوقه، أسمر ثلاثيني في جلباب أبيض متسخ بما شعرت أنه مزيج من الطين والعرق وعلى وجهه أعتى آيات القلق والإنهاك،

وقبل أن أسأل صاح في وجهي بتوسلات وترجيات وأشياء لم أفهم منها سوى أن ابنته بها خطب ما، فما كان مني إلا أن أحاول تهدئته وصرفت الواد سويلم بنظرة متوعدة لكنه لم يفعل إلا بعد أن قذفت له بقرش صاغ كامل وبضع الحلوى.

بعد أن هدأ الرجل، الذي أخبرني أن اسمه «مليجي ابن تفيدة»، فهمت منه أنه كان مسافرًا مع ابنته نجية واضطروا للتوقف كي... «هنا سكت ففهمت أنها نزلت من الحنطور كي تقضي حاجتها»، رفع صوته بعدها قائلًا أن «حنَشًا» قد «قَرَمها».

حسنًا، قلت لنفسي وأنا أنهض لآتي بمصل وأجهز العدة، هذه ليست مصيبة كبيرة كما توقعت من سويلم، لدغة الثعبان هنا ليست مميتة، ليس في تلك النواحي، وهي حادثة متكررة وسهل التعامل معها، طمأنته وذهبت معه لكني كنت قد بدأت أتوتر حين أخبرني بمكان ابنته، فقد كان بعيدًا وسيجعل من مهمة الترياق شيئًا صعبًا لطول المدة التي بين العضة وبين علاجها.

اضطررت أن أوقظ بهتان، حماري العجوز - ذا اللون الكالح والطبع «الأكثر كلاحةً» - من نومه الذي لا ينتهي، نهق معترضًا لكنه استسلم في النهاية حين لمح حزمة «الكُرّات» الخضراء التي لوحت له بها، امتطيته وصعد مليجي ورائي وأسرعنا خارجين من البلدة حتى بلغنا الطريق الزراعي، في الطريق أخبرني أنه قد أودع ابنته بيتًا منعزلًا قبل أهله أن يضيفوهم وهي تستريح هناك حتى يأتي لها بمن يداويها، سألته عن كيفية هجوم الثعبان عليها وإن كان قد رأى نوعه ومكان العضة فأطرق خجلًا وفعلت المثل بعد أن تخيلت مواضعَ لا

يمكن ذكرها.

هرولنا بالحمار لأكثر من ساعة تضاعف فيها قلقي على نجية ابنته لكننا كنا قد وصلنا لبداية مدق مخفٍ أشار لي أن أسلكه ففعلت، توغلنا بين حقول الذرة حتى بلغنا دوارًا صغيرًا على تبّة عالية مكونًا من بضع غرف وطابقين، خلفه منحدر ينفتح على مساحة واسعة تم حرثها استعدادًا للمحصول القادم، تنقسم الأرض المنبسطة طرقًا ومدقاتٍ عديدةً حتى صارت مربعاتٍ صغيرةً لا تزيد مساحة أي منهم عن الربع قيراط، البيت نفسه يستند على شجرة جميز عجوز وهناك بئر قديم وطلمبة مياه حمراء في الساحة الترابية أمام البيت.

سمعنا آذان المغرب من بعيد وبدأ النهار يتخلى عنا لكني رأيت مصباحَ زيت مشتعلًا رابضًا على إطار نافذة بالطابق الأرضي فاطمأننت أننا لن نبقى في الظلام.

ثم توقف بهتان العنيد، على بعد ما يزيد عن الخمسين مترًا من البيت ورفض أن يكمل، ساعتين من الهرولة كانتا أكثر مما يحتمل، لم ينتظر المليجي ابن تفيدة حتى أقنع بهتان بتغيير رأيه وقفز منطلقًا للبيت وهو يترجاني أن أسرع خلفه، ترجلت أنا الآخر والتقطت حقيبة أدواتي الجلدية المتهالكة واستدرت لألحق به، لكن ما أن فعلت حتى استدار حماري الأبله وركض مبتعدًا بكل سرعته، ضربت كفًا بكف وأنا أراقبه في نور الغروب حتى اختفى عن ناظري، ما بال بهتان؟ لم يفعل هذا من قبل، هكذا تساءلت قبل أن ألتفت لألحق بالأب المذعور.

حين بلغت البيت لفت انتباهي وجه طلّ عليّ من نافذة الطابق

الثاني ثم اختفى قبل أن أرى تفاصيله. تجاهلته ودلفت من الإطار الطيني الذي فاجئني بعدم وجود باب فيه، فقط فتحة تصل مدخل البيت بالساحة الترابية خارجه، وكذلك النوافذ، لم تكن بها شبابيك، ثم تسمرت مكاني حين اصطدم بي طفل وهو يعدو في طريقه للخارج، منعت نفسي من سبّه كي لا يطردني أصحاب البيت قبل أن أقابلهم وأجبرت نفسي على الابتسام من بين أسناني.

-بالراحة يا حبيبي.

تجاهلني الصبي وذهب ليجلس عند البئر، التفت بعدها لينظر إليّ بوجهه المتسخ دقيق الملامح غزير الأوساخ بتعبير جامد لا حياة فيه، انتظرت أن يخرج طفل آخر في ملاحقته لكن كل ما سمعته هو صياح المليجي أن أسرع إليه، رميت الطفل المريب بنظرة سريعة لأجده قد انحنى داخل البئر وطفق ينادي بشيء ما لم تلتقطه أذناي.

خطوت داخل البيت المظلم إلا من ضوء مصباح الزيت الرابض على إفريز النافذة، حمل الهواء البارد رائحةً كريهةً ليتحف بها أنفي، مزيجًا من روث البهائم والتبن المبتل، جلت ببصري باحثًا عن أهل البيت قبل أن أصيح:

-يا ساترا!

-إطلع فوق يا عم غريب!

هكذا نادى مليجي فعبرت المدخل الذي بثت فيه الظلال حياةً راقصةً، اتجهت للسلم الذي يواجه المدخل، محاولًا استكشاف طريقي بين أحراش من التبن وجريد النخل وفضلات الطيور،

لمحت فرنًا فلاحيًا ممتلئًا على آخره بأشياء لم أرها لضعف الإضاءة ثم تسمرت مكاني حين لاحظت أن أمامه فتاةً تجلس القرفصاء، لا تتعدى السابعة، كما يشي حجمها، تحسست الحلوى الراقدة في جيب جلبابي التي كنت أحتفظ بها لمن أداويه من الأطفال وأخرجت واحدة ثم تقدمت لأعطيها للطفلة، لم تستدر ولم تلحظ وجودي في الأساس وقد ظل انتباهها منصبًا على الفرن عديم الفائدة، هززت رأسي متعجبًا ووضعت الحلوى بجوارها ثم استكملت طريقي عبر «الزريبة» التي يعيشون فيها.

ألم يجد مليجي بيئًا غير هذا؟ كيف يعيش أناس هكذا؟

صعدت للطابق الثاني مستخدمًا السلم الضيق ومستعينًا بالإضاءة الخافتة لمصباح الزيت التي تأتي من أسفل، لاحظت أن الطفلة قد مدت يدها لتختطف الحلوى والتهمتها في نهم قبل أن تنظر إليّ، لكنني لم أرَ ملامحها بسبب العتمة وخصلات شعرها الغجريّ، ابتسمت لها ثم التفتُّ للطابق الثاني حيث وجدت غرفتين وسلمًا خشبيًا منتصبًا يستند على فتحة تصل إلى السطح.

-يا ساترا!

-هنا يا عم غريب.

تتبعت صوته حتى الغرفة الأولى لأجده في انتظاري على أحرّ من الجمر بجوار فراش غير مريح من الخوص، هناك مصباح زيت آخر على الأرض يخلق في الغرفة ظلالًا عملاقة لكل ما يسقط نوره عليه، على الفراش تستلقي فتاة لا تتعدى السابعة عشر منكمشةً في وضع الجنين وقد بدا لي أنها تضغط على بطنها من شدة الألم.

جلست بجوارها ووضعت كفي على جبهتها لأجدها محمومةً، هنا كان لا بد أن أسأله:

-شفت اللي عضها؟

-لاه، بس هو حَنَش، هيكون إيه يعني؟

-طب معلش يا أخويا، لازمن أشوفها.

احمر وجهه وقال:

-مش مصدجنى إياك؟

-يا بلدينا لازمن أعرف هعالج إيه، ولا أديها أي علاج والسلام؟

ازداد وجهه احتقانًا قبل أن يغمغم ساخطًا بسبّةٍ لم أسمعها وهو يرفع جلبابها حتى فوق الفخذ، وما أن رأيت آثار اللدغة حتى ازدادت القصة غرابةً.

فأمامي رأيت آثارَ أسنانٍ مشقوقةً، تمامًا كما تكون أنياب الثعبان، لكن الغريب أنها لم تخترق اللحم، مجرد كدمة زرقاء داكنة على شكل الأنياب، والأنياب نفسها غير مدببة، بل عريضة مثل أسنان الإنسان، كيف دخل السُمّ إذن؟ التفتُّ لأبيها الملتاع لأسأله:

-هى فيه لدغة تانية؟

-لاه، هي كانت «مجعمزة» وسط الشجر وفجأة فَطّت وصرخت بِعِلْو صوتها جطعت لي الخَلَف، هي لدغة واحدة بس.

هززت رأسي باستغراب قبل أن ألتفت للفتاة مرةً أخرى، لكن في

هذه المرة لم يسعني سوى أن ألاحظ نتوءًا خفيفةً في بطنها.

-طب معلهش، هي متچوزة؟

هنا فقد أعصابه وصاح بي:

-إيه الأسئلة الماسخة دي يا چدع إنت؟ مال چوازها بالحنش اللي لدغها؟

-ممكن تكون...

أردت أن أخبره أنها لو كانت حبلى لمن الممكن أن يكون حملها له يد في حالتها تلك، ولأخذت حذري في اختياري الدواء، لكني ابتلعت لساني لحساسية الموقف، التفت لمكان الإصابة محتارًا قبل أن تنتفض الفتاة لتفزعني، وضعت كفيّ يدي مرةً أخرى على جبهتها لأجدها ملتهبةً.

-نادي عليهم خليهم يچيبوا طشط فيه مايه ساجعة وخِرجة.

تركني وخرج مسرعًا فناديته:

-حاول تبجى خِرجة نضيفة.

ثم تمتمت لنفسي أنه سيكون شيئًا مستحيلًا في بيت كهذا، نهضت لأنظر من النافذة لأجد أن الظلام كاد أن يفرض سيطرته تمامًا لكني استطعت أن ألمح الصبي، كان لا يزال جالسًا عند البئر، ينظر إليّ قبل أن يحول بصره لشخص ما عند مدخل البيت أسفل مني، مددت عنقي لأرى شعر الفتاة الممتلئ بالأوراق الجافة والأوساخ وهي واقفة أمام المدخل، تبادلا حوارًا خافتًا قبل أن ينظر الصبي مرةً

أخرى للبئر ويقول شيئًا ثم ينزل من فوق سوره الدائري وينطلق راكضًا خلف البيت.

ذهبت لأنظر من النافذة الخلفية لكن مليجي ظهر عند الباب ومعه آنية نحاسية مغطاة بطبقة من السناج الأسود، أخذتها منه قبل أن ينسكب الماء منها ووضعتها بجوار الفراش ثم أمسكت بالخرقة شديدة الاتساخ الراقدة في قاع الآنية وقمت بعصرها قبل أن أضعها فوق جبهة نجية ابنته.

-مش هتديها علاج؟

-وهو أنا عارف هي مالها، دي مش لدغة حنش يا مليجي يا أخويا، مفيش دم، الأنياب مجرحتش الجلد.

هكذا أجبته وأنا أتذكر سويلم ويبدو أنه لن يخلف ظني في نهاية الأمر، هذه الحالة بدأت تثير توتري.

ظللنا بجانب نجية لبعض الوقت، ننتظر أيةَ بادرةٍ تحسنٍ، لكن كل ما رأيناه هو انتفاضات وتشنجات أثارت ذعرنا، كان سببها الحمى العالية، وكل ما سمعناه هو صوت الطفلين وهما يركضان داخل وخارج المنزل. نظرت من النافذة لأجد ستارة سوداء يتخللها لمعان النجوم فتململت في جلستي بجوار الباب وقلت لمليجي الذي كان منكمشًا بجوار ابنته:

-مدد چنبها إنت يا مليجي، الحكاية ممكن تطول.

غمغم قائلًا كأنه يكلم نفسه:

-لو حصلها حاچة الدنيا هتتطربج فوج نافوخي.

تعجبت من كلامه فبادرته:

-هتتطربج كِيف؟ هو مش إنت أبوها برضك؟

-أيوة أومال أبوها، أومال خاطفها؟

-طب معلش رد على سؤالي، ممكن ينجدها، هي متجوزة؟ لازمن أعرف علشان أفهم هي مالها. وإلا تشيل إنت ذنبها لو حصلها حاچة.

-يا بويا على السؤال المهبب ده!

ثم أطرق للحظة واسترد فيها هدوءه ثم قال بصوت هامس وهو يتلفت حوله:

-كانت! كانت متنيلة متچوزة، ومن ورانا كماني، وأنا واخدها لأخوالها في بحري، تتاوَى عنديهم لحد ما يجيلها عدلها.

-وچوزها؟

صرخ في وجهي:

-ملكش صالح بجى! هو كمان چوزها له دعوة بعلاچها؟

-خلاص ماشي، دلوجتي شوفلنا أصحاب البيت ده فين، سايبنا كل ده لحالنا إكده ولا كباية شاي ولا حتى تحية، عايزين نوكل البنية حاچة، تلاقيها على لحم بطنها.

أحكم فوقها الغطاء ثم تركني على مضض ونزل ليبحث عن أصحاب البيت، «لو كانوا في الغيط زمانهم رجعوا»، هكذا قلت في سريرتي وأنا أعيد ضخ الزيت في فتيل المصباح ليسطع مرةً أخرى

بعد أن كاد أن ينطفئ وأغرق بعدها في الظلام الدامس، لم تمر سوى دقائق قليلة حتى عاد ابن تفيدة وهو يقلب كفيه.

-مفيش حد إهنا.

-نعم؟ أومال مين اللي دعاك تدخل؟

-الواد الصغير اللي جاعد بيدور حوالين البيت زي الأهبل ده، هو اللي شاورلي من وسط الشجر، لولاه مكنتش شفت البيت ده من أساسه.

نهضت ببطء وقد عاد القلق والشك يدقان قلبي.

-يعني إيه؟ مفيش حد هنا غير العيلين دول ولا إيه؟

نظر بعدها من الشباك لخلفية البيت وقال:

-استنى هروح أسأل عليهم في البيوت اللي ورانا دي.

ثم هرول خارجًا مرةً أخرى تاركًا إياي مع فتاة هامدة ومصباح يحتضر، ومع خروجه دخلت الفتاة ذات الشعر الأشعث المتسخ ومعها طسط ينسكب الماء من أطرافه، أخذته منها وشكرتها ثم غسلت فيه الخرقة المتسخة ووضعتها على جبهة نجية، كنت على وشك سؤال الطفلة عن مكان أبويها لولا أن انتبهت إلى...

أية بيوت تلك التي تكلم عنها مليجي؟ فعلى ما أذكر كان هذا البيت منعزلًا لا يحيط به سوى غيطان الذرة ومن خلفه أرض منخفضة لا زرع فيها، تركت الخرقة فوق جبهة نجية وذهبت للنافذة التي تطل على خلفية البيت.

ونظرت.

لقد رأيت الكثير في حياتي، مواقفَ تهز أشجع الرجال، مشاهدَ ستلازمني ما حييت، لكن في اللحظة التي رأيت فيها تلك البيوت حتى تجمد الدم في عروقي، منازلَ طينيةً متباينةً الأحجام، بلدةً كاملةً، شوارعَ وحاراتٍ وبناياتٍ، طاحونةً ودكاكين، قريةً كاملةً قد تبدو طبيعية، لولا نقطتان في منتهى الأهمية.

الأولى أن تلك البلدة بكل ما فيها لم تكن موجودةً قبيل المغرب حين وصلت هنا، أي قبلها بساعات.

والثانية هي أنها ساكنة تمامًا، خاوية من البشر والحيوان، خالية من الحياة، مبانٍ صماء لا يشع منها ضوء ولا تلمح فيها حركة، ولا تسمع...

لم أكمل الجملة في رأسي لأنني سمعت صراخًا أوقف شعر رأسي، عويلَ رجلٍ مرعبًا ينضح بالألم والذعر يخرج من أحد تلك البيوت أمامي، صوت مليجي، ينادي عليّ، يتوسل إليّ لأنجده.

أسقط في يدي وعجز عقلي عن التفكير للحظات قبل أن ألتفت لنجية التي كانت لا تزال في غفوتها. هل أتركها وأذهب لأنقذ أبيها؟ لا، هذا كثير عليّ، فأنا لست بطلًا.

«منك لله يا سويلم الكلب!».

سمعت بعدها أصواتًا حول البيت، كأن هناك جيشًا صغيرًا من الأطفال يركضون ويلعبون، نظرت بالخارج لأرى في ضوء النجوم أطيافًا، العشرات من الأطفال، فتيات وصبيان من أعمار مختلفة،

يدورون حول البيت. يغنون...

«يا شمس يا شموسة... خدي سنة الجاموسة... وهاتيلي سنة تانية... آكل بيها البسبوسة».

توقفوا للحظة، ونظروا إليّ، ثم أشاروا ناحيتي، قبل أن ينطلقوا ناحية البيت كأن يأجوج ومأجوج قد خرجوا من سجنهم وكنت أول من يرونه، انبطحت أرضًا لأتوارى عن أنظارهم وأنصتُ للحظة لتلك الأصوات التي دخلت البيت، ضحكات بريئة كانت أشد إثارةً للذعر عن لو كانت زئيرَ أسودٍ.

ما كل هذا العدد من الأطفال؟ ألم يكونوا اثنين فقط؟

وأين أهلهم؟

رق قلبي لأنين نجية فذهبت إليها لألاحظ أنها تحك جسدها أسفل الغطاء، ترددت للحظة قبل أن أرفعه لأجد أثر العضة ملتهبًا فانحنيت لأفحصه بدقة، ثم لهولي لمحت آثارًا أخرى فوق العضة، رفعت فستانها أكثر لأرى العشرات من آثار العض في بطنها وساقها الأخرى، آثار أسنان بكل تأكيد، تشوه جسدها كله، تجعله مثل العلكة التي لاكها صاحبها حتى صارت بلا طعم. رغم توتري الشديد من هول ما رأيته، لكني أمسكت بطرفي إثر عضة منهم ودققت النظر، ورأيت مما لا يدع مجالًا للشك أنها... آدمية... غير مكتملة، كأن...

سرت رعدة في جسدي حين تناهى إلى مسامعي أصوات صعود الأطفال فأسرعت لأغلق الباب بالمزلاج الخشبي وألصق أذني به، سمعتهم يصلون لباب الغرفة، ثم لا شيء... سكن كل شيء خارج

الغرفة كأن هناك من ضغط زر إلغاء الصوت في مذياع الدنيا، كتمت أنفاسي وأنصتُ.

ثم سمعت همسًا، كانوا يتحدثون فيما بينهم بصوت خفيض بينما يكتم بعضهم ضحكته.

ثم ارتج الباب.

تراجعت للوراء وأنا أحدق بالباب الخشبي الذي حتمًا لن يصمد...

ارتج مرةً أخرى لأنتفض ذعرًا وأنا أرى المزلاج يترك مجراه، قبل أن أسمع:

-افتح يا حاج.

قالها أحد الأطفال بصوت نقي بريء يكاد يدفعني لتصديقه، لكني لم أمتثل، بل اندفعت لأسند الباب بكتفي، وسمعتهم يهمسون مرةً أخرى.

كلمات لم أستبن منها سوى:

«سيبوه سيبوه... هي هتصحى دلوقتي».

هنا هرب الدم من جسدي كله وتخشبت مفاصلي وأنا أحاول استنتاج من يقصدون، أم أنني كنت أعرف ويرفض عقلي؟

لا أدري.

لا أدري سوى أنني سمعتهم يركضون مبتعدين لينزلوا السلم، ليستكملوا لعبهم بينما صدر صرير خافت من ورائي... صرير لا يخرج سوى من فراش خشبي متهالك ترقد عليه فتاة جسدها منهك لاكته

أسنان غامضة.

درت برأسي نصف دورة لألمح بطرف عيني نجية وهي تعتدل لتجلس على الفراش وتنزل ساقيها لتلمس الأرض، ببطء شديد مددت يدي لأرفع المزلاج دون أن أتركها تغيب عن طرف نظري، سكنت نجية للحظة قبل أن ألمحها تلتفت إليّ.

تفتح فمها على آخره و...

طق طق طق طق.

ظلت تعض الهواء بأسنانها بسرعة لكنه لم يكن ما جعلني أنتفض ذعرًا وجعل أطرافي تتجمد من الهلع، بل تلك الصبية الصغيرة التي كانت تقف بجواري بالضبط.

والتي كانت تبتسم لي... لأول مرة...

لتظهر أسنانها الأمامية مفتقدةً سنتين في منتصفهم تمامًا.

(3)

أدرت رأسي وبحلقت في وجه غريب، منتظرًا أن يكمل الحكاية، وسألته:

-يعني البنت هي اللي عضت نجية؟

ابتسم فاستطردت:

-وعملت فيك إيه؟

-الحكاية أكبر من كده.

دق هاتفي ليمنعه من استكمال كلامه فأسرعت بالتقاطه لأجد أنها زينة، نظرت في الساعة لأجدها قد تخطت الثامنة والنصف، انتفضت ونزعت من فوقي المئزر الأخضر ثم نهضت صائحًا:

-ليلتي مش فايتة! معلش يا عم غريب، مش مهم الفوطة، كان لازم أبقى في مصر الجديدة من نص ساعة، قولي الحساب كام.

أومأ برأسه في كياسة وقد استعاد سلوكه المتحفظ، ثم قال وهو يزيح الشعر المتساقط مني ويكدسه في ركن:

-ولا أي حاجة يا مسيو، دي هدية جوازك.

شكرته وهرعت لسيارة الشركة النقل، وما أن صعدت إليها حتى نظرت لوجهي في المرآة، ما هذه القَصّة يا عم غريب؟ لقد جعل مني نسخةً من مغني الثمانينات والتسعينات «إيهاب توفيق»، نفس الحواجب الثقيلة والتسريحة «البانك» التي انتهت موضتها منذ قرون.

عضضت شفتيّ غيظًا منه وأدرت السيارة لأتجه لبيت خطيبتي وأنا أتساءل عن الكيفية التي سأفسر لزينة وأهلها تأخيري وهذه السيارة الوضيعة عالية الصوت، ذرت عائدًا لكرفانات الشركة ورميت دكان الحلاق بنظرة سريعة لأجد أن الأسطى غريب قد أطفأ أنواره وبالكاد أستطيع أن ألمحه يقف في الظلام... كما رأيته أول مرة، تعجبت من التصرف لكني هززت رأسي كي أصب تركيزي في المهمة المخيفة التي تنتظرني.

***

-إنت فين؟

هكذا همست زينة عبر الهاتف بصوت كالفحيح، ابتلعت لعابي بصوت مسموع وأنا أكاد أراها أمامي وهي تضغط على حروف كلماتها بعصبية.

-كل ده تأخير يا فتحي؟! أهلي مستنيينك بقالهم ساعة ونص! قولي إنت فين دلوقتي حالًا ومتكدبش وإلا هقفل السكة في وشك ومش هتشوفني تاني!

-أحلفلك بإيه إني بقالي نص ساعة بحاول أركن تحت بيتكم.

-ليه إن شاء الله؟ راكب عربية نقل؟

لم أجبها، وهذا لأنني سمعت النافذة تنفتح عندها في نفس اللحظة التي نزلت فيها من «العربية النقل»، أمام بيتها.

-إيه ده؟ ده بجد.

هكذا سمعت صوت فتاة بجوارها تلتها ضحكة مكتومة، رفعت عينيّ لنافذتها بالطابق الثالث لأجد ما لا يقل عن الخمس رؤوس لفتيات يسترقن النظر من خلف زينة، التي كانت ذاهلةً لا تنطق، أنهيت المكالمة وصعدت مستسلمًا لما سيحدث لي بالأعلى.

***

كان في استقبالي كتيبة إعدام صغيرة.

فتح سمسم الباب لي، شقيق زينة الأصغر، الذي هو نسخة مصغرة من سماجة وتنمر أبيه.

-فتوح جه! لافندي جه!

هكذا صاح وهو يدور في الشقة معلنًا وصولي، الشقة التي كانت خاوية إلا من حفنة ضيوف لا يتعدون العشرة، بينما انتشرت الكراسي وصواني الشربات والجاتوه لمن كان هنا من الضيوف ورحل قبل مجيئي، لمحت مشغل الأغاني الساكن ورأيت في وجوه من بقي من أقارب زينة اشمئزازًا يكفي لحرق جِنيّ لو كان مكاني، الكل صامت كأنهم كانوا يتكلمون وسكتوا حين ظهرت لهم، بكل تأكيد انتقل شعور دكتور سراج للجميع، ربما كان ينتقدني أمامهم قبل وصولي وللأسف لا أفعل شيئًا إلا ويُضعف موقفي أمامه.

تمتمت بكلمات اعتذار شعرت أنها لم تغادر حلقي، لا إراديًا نفضت أتربة وهمية من على ملابسي بينما بحثت عيني عن أي وجه مألوف، ثم وقعت عيني عليه، وليتني لم أره.

في نهاية الصالة الطويلة جلس دكتور سراج، بدأ لي كزعيم حرب

قبيلة من البربر ينتظر مثول مبعوث قبيلة ضئيلة تريد التقرب منه اتقاء شره، بجواره جلس أشقاؤه الأربعة، واللذين لا يتخيرون عنه، نفس الطول والهيبة والوجه العابس الطويل، نفس الشكل لكن بأعمار مختلفة.

كتيبة إعدام «كما أُنزل».

ثم ظهر منقذي حين خرجت زينة من غرفتها واتجهت إليّ بخطوات واسعة، دون أن أشعر رفعت ذراعي لأحمي وجهي من حدة التعبير الذي ارتسم على ملامحها، تعبير عشماوي وهو يتقدم إليك ليأخذك لغرفة الإعدام، أومأت برأسها مشيرةً إلى شعري.

-إيه اللي إنت عاملُه في نفسك ده؟

همست بها من بين أسنانها وشفتيها الممتلئتين قبل أن تلتفت للضيوف وتقول بصوت عالٍ:

-اتفضل يا فتحي، معلش يا جماعة، أصل فيه مشكلة حصلتله في الشغل.

نجحت في تحريك ساقي التي كانت قد انغرست في البلاط ورسمت ابتسامة مرتعشة قبل أن أترك زينة تقودني للمذبح، حشرت جسدي الضئيل في الكرسي بين دكتور سراج وشقيقه الأوسط، عميد الشرطة الضخم الذي كان يرمقني كما لو كنت حرامي غسيل، بينما تركتنا النسوة ودخلن لغرفة المعيشة، أومأت زينة إليّ مرةً أخرى مشجعةً لتذكرني أنها تريدني، فلا يجب عليّ أن أنهزم قبل المعركة، قبل أن تغلق أمها الباب في وجهي لتحول بيننا.

بدأ الكلام عم زينة الأكبر، وكيل الوزارة السابق:

-يعني مفيش عم ولا خال كان يبقوا معاك في مناسبة زي دي يا فتيحة يا بني؟

-فتحي يا عمي، لأ، مش معايا غير ربنا، عمي الوحيد في أمريكا وعمتي في أستراليا.

قلتها بصوت مختنق بينما تضاربت المشاعر بداخلي، أكثرها قسوة كان شعوري باليتم، تذكرت طفولتي وصباي في الخليج وشعوري بالغربة والوحدة هناك، وبعد وفاة والدي عادت بي أمي إلى مصر لكنه كان بعد أن فعلت الغربة أفاعيلها وانقطعت جسور الود بين أمي وأخيها بعد مشاكل الميراث، تطوع عم زينة الأصغر، ضابط الحربية:

-ونعم بالله، كلنا مالناش غير ربنا، بس لازم حد كبير نقعد معاه ونرجعله لو حصل مشاكل لقدر الله.

-مشاكل إيه يا عمي؟ أنا وزينة متفاهمين الحمد لله ودكتور سراج عارف أنا بَكِنّ له احترام قد إيه.

هنا تدخل سراج، الذي كان ينظر خارج النافذة متعمدًا تجاهل الحوار:

-بقولك إيه يا عم فتوح، فيه أصول، محدش بيتقدم لواحدة بطوله، الجواز نسب بين عيلتين، وفيه مواعيد لازم نحترمها، مش «نلطع» الناس ساعتين ونيجي بالمنظر ده.

-يا عمي ما أنا رحت للحلاق...

اكتسب صوته خشونة فوق خشونته وهو يقول:

-حلاق مين يا بني؟ متخنقنيش منك أكتر ما أنا مخنوق، بقولك فيه مظهر عام لازم نحافظ عليه، ده أنت جايلنا بعربية نقل.

ابتلعت غصة عالقة بحلقي وشعرت بجسدي الممتلئ يتضاءل في الكرسي، لمحت عيون زينة الواسعة جاحظةً من فتحة الباب، فتشجعت قليلًا وقلت:

-ظروف شغلي يا عمي، أنا بنحت في الصخر والله، وإن شاء الله زينة هتعيش في مستوى أعلى كمان من اللى هى عايشة فيه...

اكفهرت وجوه الأخوة الخمسة وأدركت حينها أني أخفقت، هدر دكتور سراج وأنزل ساقه من فوق الأخرى في تحفز:

-نعم؟ ماله المستوى اللي زينة عايشة فيه؟ إنت تطول تعيش في مستواها.

ثم نهض عملاقًا وقال:

-بقولك إيه يا باشمهندس، إحنا معندناش بنات للجواز.

سقط قلبي بين ضلوعي وشعرت أنني اختفيت، حاولت زينة الخروج للتدخل لكن أمها منعتها وأغلقت الباب وسط ذهول صديقات زينة، حاولت الوقوف لكن ساقيّ المرتعشتين لم يسعفاني، تدخل العم الأكبر ليساعدني على الوقوف بعد أن رق قلبه لموقفي، أمسك يدي ليسندني وقال:

-معلش يا فتيحة يا بني، الدكتور سراج مزاجه اتعكر بسبب

تأخيرك، روح بيتك دلوقت وربك يسهل.

-أنا مزاجي مش متعكر بسبب التأخير، الباشمهندس كلامه وتصرفاته ووضعه كلهم غلط في غلط، أنا غلطان إني مرفضتش من الأول.

أومأت للأخ الأكبر طالبًا المعونة بعد أن تضاءلت قائمة حلفائي، ظل يربّت على كتفي مواسيًا وهو يقودني لباب الشقة، وهناك ألقيت نظرةً أخيرةً على باب غرفة المعيشة المغلق، ثم غادرت.

«هدية جوازي؟» نبرت فيها يا عم غريب؟

***

يا للبؤس.

عدت لبيتي أجر أذيال الخيبة، رميت السيارة النقل في أحد الشوارع المحيطة ببيتي في مصر الجديدة وصعدت مثقلًا بهموم لا حصر لها، لكني لم أقوَ على الوصول لشقتي بالطابق الثالث، بل جلست على بداية الدرج في الطابق الثاني ووضعت كفي على رأسي استعدادًا للبكاء.

ثم دق هاتفي.

نظرت فوجدت أنها زينة، لا بد أنها تريد مواساتي أو تشجيعي للمحاولة مرةً أخرى، وجدت أنني لا أستطيع الرد عليها، فأغلقت الهاتف وصعدت شقتي.

***

لم أدرِ كم من الوقت غفوت على أريكة صالتي حتى فزعت حين طرق أحدهم باب شقتي، نهضت متثاقلًا لأفتح الباب وأفاجأ بزينة تقف أمامي.

-بتحبني؟

-أ... أيوه.

أجبتها وأنا أحكم قميصي على جسدي الممتلئ فاستطردت بحماس:

-يبقى نتجوز.

-من ورا أهلك؟

-أيوه، والأسبوع ده.

قالتها ثم أعطتني رقم هاتف جديدًا لا يعرفه أحد لأتواصل معها من خلاله، كما قلت، زينة بطلتي الرياضية لا يقف شيء في طريقها، تركت كفها في كفي أطول من اللازم فنظرت في عينيها بهيام لأجدها تبادلني نظرة الحب، تسارعت نبضات قلبي وتجرأت لأرفع كفها وأقربه من شفتيّ، انتظرت أن تعترض لكنها تركتني أقبل كفها ثم أضم يدها إلى صدري، فما كان منها سوى أن جذبت يدي إليها ودنت بها من شفتيها الممتلئتين، تركت لها يدي راسمًا في ذهني مشهدًا رومانسيًا ساخنًا... حتى...

-آي!

هكذا هتفت وجذبت يدي لأتحسس مكان الألم... حيث نبشت زينة

أسنانها.

-عضتيني!

-وأنا كمان بحبك.

قالتها واستدارت بعدها مبتسمةً في ظفر لتنزل السلم، أغلقت الباب مبتسمًا أنا الآخر رغم العضة التي ظلت تؤلمني حتى الصباح.

«مجنونة»، قلتها لنفسي وأنا أبتسم كالأبله.

***

استيقظت في حالة من النشوى والسعادة لا أذكر أنني مررت بها من قبل، وهذا بعد أن كنت قد شعرت أن حياتي قد انتهت، ليس فقط بسبب زيارة زينة، فلم أكن أتخيل أنها ستمضي في قرارها، يكفي تمسكها بي، بل لأن المهندس حبيب، مديري العزيز، اتصل بي وطلب مني أن أتجه على الفور لمدينة «السادس من أكتوبر» حيث سأبدأ اختبارات تشغيل مشروع جاهز للتسليم، مشروع جديد يعني حوافز إضافية وثقة في عملي ونتائجه، كأن الدنيا قد اكتفت بتعذيبي ومعاقبتي وقررت مكافأتي على صبري.

وهكذا وجدت نفسي مرةً أخرى مع العم تؤ، نستمتع بغناء «المنيرة المهدية» الذي صار أكثر شبهًا بنداءات الأرواح بعد أن نجحت بصعوبة في تحريك المؤشر العنيد إلى القناة «005»، حيث ثبت على موقفه، قطعنا الطريق الدائري في اتجاه «السادس من أكتوبر» وأنا شارد هيمان في الفصل القادم من حياتي والذي سأقضيه مع زينة، تحسست مكان العضة على جانب كفي وحركت مرآة الكابينة

لأنظر إليها، لم تكن سيئة لهذا الحد لكن العم تؤ زمجر ونفخ بنفاذ صبر وهو يقوم بإعادة المرآة لوضعها دون أن يقول سوى:

-تؤ.

حاولت -على استحياء - إقناع زينة أن نحاول مرةً أخرى مع أبيها لكنها رفضت بشكل قاطع، اقتنعت بوجهة نظرها، فلو شعر أباها أننا لا نزال متمسكين بقصتنا لمنعها من الخروج نهائيًا تلافيًا لـ «شطحات» زينة، رغم سعادتي بتمسكها بي لكنه لم يمنعني من أن أرتعد من مجرد تخيل رد فعل دكتور سراج العملاق بعد أن يعرف، فلو كان مزاحه معي بتلك الطريقة المهينة ونحن على نوع من أنواع الوفاق وهناك احتمال قائم أن أصبح أبًا لأحفاده فما الذي سيفعله بي لو «خطفت» ابنته منه من دون رضاه.

تقلصت معدتي وشعرت بالدنيا تميد بي بعد أن نجح التوتر في الصعود على كتف التفاؤل وإخضاعه لوسوساتي، طلبت من عم تؤ الوقوف ففعل بعد «تؤ» خافتة لأنزل من السيارة بسرعة وأركع لألتقط أنفاسي المذعورة.

اعتدلت لأسير في الشارع الجانبي ذهابًا وإيابًا، أكلم نفسي وأكاد أجن، كيف وافقتها على فكرتها هذه؟ سوف يسحقني سراج ولن يمسها هي بسوء، أنا لست ندًا له ولست مؤهلًا لتلك المغامرة، أنا لست مثل زينة، لست في شجاعتها وليس لدي إرادتها الحديدية، لم تنجح المحاولة وظل الهواء يحرمني من الأكسجين وقد تمكنت مني نوبة الذعر تمامًا، هذه هي الحقيقة يا فتحي، هذه ليست بوابة ستفتحها لتجد أحلامك بانتظارك، أنت لست...

توقفت أفكاري دفعةً واحدةً بعد أن وقعت عيناي على مشهد مستحيل؛ لافتة نيون خضراء معلقة على عمارة غير مسكونة بالطوب الأحمر، بناية من ثلاثة طوابق مشيدة فوق التراب على الحدود بين الأسفلت وحقل قرنبيط، لافتة تقول:

«صالون غريب».

إنها نفس اللافتة، همست لنفسي، نفس الدكان، الدهان الأبيض الناصع والواجهة الزجاجية العريضة، نفس المصابيح والمحتوى المظلم رغم أننا في النهار، نظرت حولي، أنا في نهاية الطريق الدائري، عند مخرج المنيب، حولي عمران قليل وبداية الأراضي الزراعية، إنه ليس حتى نفس المكان، كيف جاء إلى هنا؟

والشيء الأغرب في هذا المشهد هو تلك المساكن التي رأيتها خلف العمارة التي بها صالون غريب، تبدو لي كبلدة كاملة من بيوت ذات طابق أو طابقين لكنها خاوية تمامًا، مبانيها بنفس الحالة، كأنها قد تم الانتهاء منها كلها في نفس التوقيت من سنين قليلة لكنها لم تُعمّر بعد.

اعتدلت فاردًا جزعي ونظرت حولي باحثًا عن ساكن قريب أو حتى عابر سبيل أسأله عن دكان الحلاقة المريب هذا والبلدة التي أراها أمامي لأول مرة في هذا المكان، لكني لم أجد سوى كلاب تركض مبتعدة وفلاحين يعملون في الأرض الزراعية على بعد مسافة كبيرة.

تأملت محتوى الدكان المظلم وتدبرت للحظة، شيء ما كان يدفعني للاقتراب، ربما شعرت بصلة نشأت بيني وبين صاحبه بعد

أن شاركته قصة خطوبتي، وما أن فعلت حتى أضاء أحدهم مصابيح اللافتة والدكان من الداخل لأجده أمامي...

أسطى غريب.

ظهر في الدكان وهو يخطو ليفتح لي الباب.

-مسيو، إتفضل.

-إنت ماشي ورايا ولا ايه يا عم غريب؟

قلتها محاولًا المزاح لكن صوتي خرج حاملًا معه كل توتري وخوفي من المستقبل، لم يغير من تعبير وجهه الرسمي وهو يقول:

-فرع جديد يا إكسلانس.

هكذا فسر فسألته:

-ومين اللي شغال في الفرع التاني؟

-أنا برضه، إتفضل.

لم لا؟ تساءلت في قرارة نفسي، هناك سؤال في قمة الأهمية يجب أن ألقيه عليه.

دخلت ليغلق الباب خلفي وهو يقول:

-أنا مش ناسي، إنت لك في ذمتي ست حكايات يا مسيو.

-مش كانوا سبعة؟ أوعى تكون فاكر إني نسيت حكاية البنت اللي بتعض.

قلتها وأنا أتحسس مكان عضة زينة وأتفادى في نفس الوقت

الأجراس المزعجة المعلقة فوق المدخل، وما أن فعلت حتى درت بعيني في المكان، إنه هو بكل تفاصيله، صور الزبائن السعيدة المعلقة إلى يساري، من حقب زمنية مختلفة، بعضها قديم، بالأبيض والأسود، قديم للغاية، قديم لدرجة يستحيل معها أن يكونوا زبائن غريب، ربما لأبيه أو جده، أمامي نفس المذياع القديم الذي لا يتصل بمصدر كهرباء، إطار المرآة الفارغ، الأريكة العملاقة اللينة والمغطاة بالمجلات أو الصحف، الستارة الخضراء التي تخفي الجزء الخلفي من المحل، كل شيء كما أذكره، كأنه نقل دكانه كما هو بطريقة ما.

لكن هذه المرة ألمح شيئًا مختلفًا خلف الستار يشبه الكومة، تلًا صغيرًا من شيء شديد الشبه ب... الشعر؟ أتساءل وأنا أغلق الباب خلفي قبل أن ألمح غريب منتصبًا كعسكري التشريفة بجانب كرسي الحلاقة الوحيد بالمحل، كأنه اختفى وظهر هناك بسرعة الضوء.

-القصة دي خلاص، فات أوانها، عندي لسه خمس حكايات غيرها هتخلي شعرك يشيب.

رمقت الشعر المكدس خلف الستارة الخضراء بنظرة خاطفة قبل أن ألمحه ينظر إليّ بشبح ابتسامة فبادرته سائلًا:

-عم غريب، إشمعنا القصة دي؟ عرفت منين إني هتجوز من ورا أهل مراتي؟

-القصص اللي بتختار، مش أنا يا مسيو، وتفسيرها بيبقى فيها، لازم تركز، تشرب إيه الأول؟ «ثم نادى بأعلى صوته ناحية الستار» يا رشاد!

-رشاد؟ مش كان اسمه نزهي؟

لا يبدو عليه التأثر بنباهتي وذاكرتي القوية فجلست على الكرسي من سكات، انتظرت أن أسمع ردًا من خلف الستار لكنه لم يأتِ، ثم وضع غريب فوقي الغطاء الأخضر كما لو كان ساحرًا يقدم عرضًا فابتسمت لتمكنه العالي من صنعته ولم أجفل مثل المرة السابقة حين استلَّ مقصه كفارس يستعد للنزال وقص الهواء ثلاث مرات بسرعة خاطفة.

-لاء مش عايز حاجة، عندي مقابلة مهمة وعايز تظبيط على السريع، بس بلاش فورمة «إيهاب توفيق» دي والنبي.

يطلق ضحكة خافتة أشعر أن بها استخفافًا.

-على طول مستعجلين، ولا كأن الواحد منكم وزير، عمومًا دي فرصة أحكي لك القصة التالتة.

حاولت أن ألتفت لأنظر إليه لكنه دفع ذقني بحزم قائلًا:

-هتجرح نفسك يا إكسلانس... متتحركش.

-نفسي أعرف القصة الأولى فين.

تجاهل تساؤلي ليبدأ الملحمة الفنية فوق رأسي ومعها يستهل حكايته:

-طلبوني مرة علشان واحدة... كانوا فاكرينها حامل.

لم أعترض ولم أحاول أن أفهم هذه الجملة العجيبة، فحتمًا التفسير فيما سأسمعه...

(4)

هند محامية لامعة، سجلها حافل بالانتصارات ولديها نصيب من الشهرة لا بأس به كواحدة من أشهر المتخصصين في القضايا الأسرية، لكنه ليس نجاحًا بدون ثمن، فحياتها العائلية عبارة عن أمواج بحر عاتية تتأرجح بها فتعلو بها مرةً حتى تكاد تطول السحاب قبل أن تنخفض بها إلى قاعٍ مظلمٍ منقعرٍ لا خروج منه.

متزوجة من دكتور رائف، طبيب باطنة ذائع الصيت، له ثقله في مصر والعالم العربي، كلاهما ناجح في عمله للحد الذي جعل حياتهما معًا بلا طعم وعلاقتهما بلا دفء، صارت الأوقات التي يكونان فيها في مصر في نفس الوقت تتقلص حتى كادت أن تكون - مصادفة - نادرة الحدوث، يقابلان بعضهما بابتسامة متحفظة ويتحاوران بمنتهى الدبلوماسية والتحضر كأنهما زملاء عمل وليسا زوجين، وبعد مرور أكثر من عشرين عامًا على زواجهما يكتشفان الخطأ الفادح، فقد قاما ببناء بيت وليس أسرة.

كانت هند أول من اكتشف تلك الحقيقة القاسية؛ أن حياتهما بلا معنى، أن مهما تركا وراءهما نجاحاتٍ فهي بلا قيمة بدون أبناء، فلا قيمة لجذع الشجرة بدون أفرع وأوراق، مهما قَوِيَ عودها وامتد جذرها، الثمار هو ما يهم، وقد أفاقت من غفلتها لتجد أنها قد بلغت عقدها الخامس وأنه ربما يكون إدراكها لهذا الخطأ قد جاء بعد فوات الأوان، لكنها تقرر النضال، فهي لم تُهزم من قبل.

لم يشاركها زوجها حماسها المفاجئ وهذا لأنه يعلم أن نسبة نجاح حملها في هذا السن تكاد تكون صفرًا، لكنه لم يقف في طريق

محاولاتها، بل وأطاعها في الكثير من الفحوصات والزيارات لزملائه أطباء الإنجاب والنساء والتوليد رغم ما يسببه من إحراج له، والنهاية كما كان يتوقعها، فقد جاءت نتيجة الفحوصات أن هند لن تتمكن من الإنجاب.

فقدت هند بعدها الشغف بعملها وبدأت تعتذر عن القضايا، وبالأخص قضايا التنازع على الحضانة، حتى اعتزلت المهنة نهائيًا، انعزلت بعدها تدريجيًا عن العالم حتى أصابها اكتئاب شديد لازمت معه البيت لشهور لم تنجح فيها أية من محاولات زوجها أن تخرجها منه.

وفي ذات يوم دخلت عليها حسنية، خادمتها الأمينة ذات الأصول الصعيدية، لتجدها في حالة يُرثى لها، كانت هند واقفةً في المرحاض شاخصة البصر في اتجاه الحائط وفي يدها لفافة مناديل ورقية استنفذت معظم أوراقها في مسح الدموع والمخاط، شعرها الأسود الخفيف عشوائي المنظر، عيناها السوداوتان حمراوان وسط هالة داكنة وقد فقدت من وزنها عشرين كيلو جرامًا على الأقل، نظرت حسنية حولها لتجد لفافاتٍ ورقية ملقاة في كل مكان، ذهبت إليها لتحتضنها وخرجت بها إلى الصالة لتجلس معها على الأريكة.

-متعمليش في نفسك كده أومال يا ستي، دي أرزاق بإيد ربنا.

-عارفة، سيبيني دلوقتي يا حسنية.

قالتها هند وهي تستلقي لتتمدد على الأريكة، راقبتها حسنية للحظات تفكر قبل أن تحسم رأيها وتريح جسدها الممتلئ على الأرض بجوار سيدتها وهي تقول:

-فيه حاجة عايزة أقولهالك يا ستي، حكاية يمكن تهمك.

-معنديش دماغ للحكايات، سيبيني بقولك.

ترددت حسنية للحظات أخرى قبل أن تردف:

-أصلها حكاية ممكن تساعدك، قصدي في موضوع الخِلفَة.

أدارت لها هند رأسها وبللت شفتيها الرفيعتين الجافتين بلسانها قبل أن تبادرها حسنية:

-بس توعديني متقوليش للدكتور؟ علشان ميقطعش عيشي.

مسحت هند الهم والتعب والدموع الجافة من على وجهها واعتدلت جالسةً لتقول:

-متخافيش، قولي، عندك حل؟

نظرت حسنية حولها في قلق قبل أن تقول:

-دي حكاية مشهورة عندنا في الصعيد، ناس بتقول عليها دجل وتخاريف، بس في الحقيقة هي...

-هي إيه؟

ترددت حسنية مرةً أخرى قبل أن تهتف بها هند:

-قولي متخافيش بقولك، هصدقك، أنا مستعدة أعمل أي حاجة.

اقتربت منها الخادمة البدينة بصعوبة وقالت بصوت خفيض:

-عندنا في الصعيد عادة مش مشهورة أوي بس الصعايدة في

المناطق البعيدة مصدقينها، بيقولك يا ستي إن - لا مؤاخذة - البهيمة اللي مش بتحبل ولا بِتدِرّ لبن يخلوها تبات في المدافن لغاية الصبح، تقوم هي بقى تحبل وتنزل لبن بعدها طوالي، ومش أي مدافن، لاه، مدافن بلد بعينها.

قطبت هند حاجبيها وقالت وهي تعض على أسنانها:

-بهيمة؟ يعني أنا أعمل زي البهايم يا بت إنتي؟

-يا ست هانم مش القصد كده، ده فيه نسوان ياما بيجوا من آخر الدنيا للبلد دى علشان يعملوا كده، عمومًا أنا آسفة متعزليش.

قالتها حسنية وجاهدت كي تقف لكن هند أمسكت بيدها لتثبتها مكانها وهي تقول:

-استني اترزعي، طب فهميني، إيه اللي بيخلي البهيمة تحبل وتِدرّ لبن؟

بنبرة حذرة أجابتها:

-من اللي بتشوفه، بيقولوا بتفك حبس اللبن وعقدة المحاشم.

تأملتها هند مشدوهةً قبل أن تشرد مفكرةً.

-والستات اللي راحوا دول شافوا اللي بتشوفه البهايم؟

-الله أعلم بيشوفوا إيه، مش بيقولوا علشان لو قالوا مش هيحبلوا.

-وبيحبلوا فعلًا؟

-أيوة ودي النعمة.

أجابتها حسنية وهي تشير لكوب القهوة نصف الممتلئ.

-وإيه المميز في مدافن البلد دي؟

-محدش يعرف غير أهل البلد، ومش كلهم كمان.

شردت هند للحظات قبل أن تقول بما يشبه الحماس:

-أنا عايزة أشوف بعيني.

-والله يا ستي أحاول.

-تحاولي؟! هو إنتي بتحكيلي علشان تسليني؟

-لا والله بس دخول البلد دي مش سهل، ولو شكوا إنك جاية تتفرجي مش هيدخلوكي، عمومًا سيبيني أرَتِّب لحضرتك زيارة، ليا واحدة قريبتي هناك، هسألها.

***

بعدها بأسبوع كان رائف في رحلة عمل في إحدى دول الخليج فانتهزتها هند كي تنفذ خطتها، سمحت لحسنية أن تبرم اتفاقًا مع قريبتها في تلك البلدة النائية في مجاهل الصعيد وقاموا بترتيب سيناريو جريء مقابل مبلغ مادي كبير، كي تتمكن هند من دخول القرية دون أن تبيت ليلتها في المدافن كما تفعل كل النسوة اللاتي يأتين من خارج القرية، سوف تدخلها كابنة خالة قريبة حسنية التي تعيش في القاهرة، سوف تقضي معها بضعة أيام تشاهد بأعينها حقيقة تلك القصة العجيبة.

سافرت هند إلى القرية التي تقبع في مجاهل الصعيد، استخدمت

في رحلتها الشاقة أربعة وسائل مواصلات كان آخرهم حمارًا هزيلًا كاد أن يشق جسدها نصفين من حدة ارتجاجه، أجبرتها حسنية أن ترتدي «حبرة» سوداء تغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها، الزي الرسمي لنساء الصعيد، وهو ما أرهقها أكثر من اهتزاز الحمار، وبعد يومين طويلين بلغت القرية التي تقبع في بطن سلسلة من الكثبان ويظللها جبل قاسِ.

منذ اللحظة الأولى التي وصلت فيها هند وقد تولد لديها شعور مقبض غير مريح، فقد وجدت نفسها في قرية من الطين والسكون، وجوه قاسية وكلمات قليلة، مدقات ترابية سكنها الهم وهربت منها الابتسامات، قادتها حسنية - التي كانت على حمار أكثر صحةً يقوده زوجها هواري - مباشرةً إلى بيت قريبتها، قامت بتعريفهما ببعضهما على عُجالة قبل أن تتركهما وتعود من حيث أتت بعد توصيات مشددة بعدم التطفل وبتنفيذ كل ما تقوله قريبتها، قالت لها حسنية أنها قد أهدتها فرصة لم يؤتها أحد من قبل من أهل «البندر»، وسترى ما يمكنه أن يثير فضولها، أشياء لا يراها إلا من يبقى مدة كافية لملاحظتها، ولذلك فلا بد ألا تهتم إلا بنفسها وبالسبب الذي أتى بها.

وقد كانت محقة، فمهما كانت غرابة القرية وغرابة قصتها، فهي هنا لغرض واحد... هي تسعى خلف معجزة.

وقد كان اختيار الوقت مقصودًا حيث كانت إحدى البهائم العُقر غير القادرات على الإنجاب أو إنتاج اللبن ستبيت في مدافن القرية في نهاية ذلك الشهر، ظلت هند تتابع البقرة لأسبوعين كي تتأكد بنفسها من أنها لا تدر لبنًا ولا تحمل جنينًا، التقطت لها بضع

صور خلسةً عن طريق هاتفها المحمول ثم قامت ببعض التحريات المستترة وسألت بعض النسوة بطريقة غير مباشرة عن تلك البقرة والكل أكد لها أنها عاقر.

رغم أن عقلها كان يرفض الأمر برمته ويصرخ لها أنها قد تكون ضحية لإحدى حيل الدجل والنصب لكن قلبها كان متشبثًا بأي أمل.

في خلال الفترة التي قضتها في القرية لاحظت هند أشياءً غريبة، في البداية حاولت السيطرة على فضولها كي لا تلفت الانتباه لها، خصوصًا مع أسئلتها المتكررة، لكن مع مرور الأيام، واطمئنان أهل القرية لها ولوجودها، تغلبت عليها طبيعة الأنثى وروح المحامية الحذقة.

أول شيء أثار فضولها كان طباع أهل القرية والتي جعلت هند تشعر أنها ليست قسوة سكان الصعيد والطبيعة الجبلية فقط، بل شعرت أن هناك غضبًا ربانيًا على وجوههم، سوادًا يموج في صدورهم ويطفو على وجوههم ليجعل سحنتهم معتمة، كأنهم قوم... ملعونون، لم يكن ليعنيها في شيء لولا أنها شعرت في بعض العيون - وخصوصًا الأطفال - بخوف دائم من شيء ما، رغبة في الخلاص ممن أو مما يترصدهم في الطرقات ليلًا.

ثم بدأت تلاحظ شيئًا آخر، بعد أيام من بقائها ضيفةً على قريبة حسنية، أن بعض الحيوانات ليست طبيعية على الإطلاق، فقد رأت في صباح أحد الأيام من نافذة الدار الخلفية حمارًا له فك ذو فتحة تصل لأسفل عينيه، كأنه سيشق وجهه نصفين، حمارًا ساكنًا لا يُحرك سوى فكه السفلى مُصدرًا صوتَ طحن عظام حتى بدا لها كأنه

سيتفكك وينهار.

وذات نهار لمحت خروفًا يركض أمام البيت له قرن واحد، وفي إحدى الليالي، وفي نفس الدار التي تبيت فيها، رأت دجاجةً بستة أرجل ولها صوت كصرير الفئران.

العجيب في الأمر أن أهل القرية أنفسهم كانوا يتحاشون تلك الحيوانات، كأنهم... يخشونهم ويخشون الخوض في الحديث عنهم، لم تهتم هند كثيرًا بهذا الأمر، لكنها لم تستطع أن تكبح جماح فضولها حين شعرت أن هناك أفرادًا من أهل القرية يختبئون من الأعين، أشخاصًا يستترون خلف الستائر المسدلة على النوافذ ويختلسون النظر إليها من فتحات الأبواب.

وفي آخر يوم لها في القرية لاحظت أن هناك شجرةً معينةً يفعل سكان القرية شيئًا عجيبًا حين يمرون بها، شجرة جميز ضخمة يكتم المارُّ بها أنفاسه حتى يبتعد عنها بمسافة كافية.

ثم عادت للقاهرة وانتظرت على أحر من الجمر أن تأتي لها حسنية بالخبر اليقين أن البقرة صارت تدر لبنًا أو صارت حبلى، اليوم صار أسبوعًا والأسبوع شهرًا ثم شهورًا وهند لا يشغل بالها سوى البقرة التي تركتها في قلب الصعيد، حتى جاء اليوم الذي دخلت عليها فيه حسنية تتهادى وعلى وجهها ابتسامة ملأت وجهها الأحمر الذى لفحته الشمس.

-حصل؟

سألتها هند بأنفاس مبهورة، وما كان من حسنية سوى أن تهز

رأسها لتهجم عليها هند وتحتضنها.

***

نفس الرحلة الوعرة المرهقة، لكن تلك المرة لم تشعر هند بتعب نهائيًا من فرط الحماس، وبعد يومين طويلين كانت تقف في الزريبة تراقب عملية الولادة، أخرجت هاتفها المحمول من عباءتها السوداء وأخذت تقارن البقرة التي تراها أمامها بتلك الموجودة في الصور، إنها هي، جميع التفاصيل والعلامات المميزة.

تقهقرت لتفسح المجال للفلاحين كي ينتهوا من إخراج الوليد وبحثت في هاتفها عن رقم زوجها كي تزف إليه الخبر السعيد.

لكن ماذا تخبره بالضبط؟ هل سيغفر لها ما فعلته دون علمه؟ هل سيغفر لها لجوءها إلى التخاريف والماورائيات وضربها بعرض الحائط كل ما تعلمته، الإهانة التي لا تغتفر لمكانته العلمية ومركزه المرموق؟ بالتأكيد سيحاول إقناعها أنها ضحية لتمثيلية متقنة وبالأخص حين تخبره بما يجب أن تدفعه من أموال لقاء خوضها التجربة.

لا، لن تخبره، وستكتفي بالكذبة التي قالتها له بسفرها للخارج من أجل قضية ما، شعرت أنه لم يصدقها، شعرت أنه لم يعد يهتم، لا بأس، سيتغير كل هذا حين يربطهما طفل، أخبرت حسنية - التي مكثت معها هذه المرة - برغبتها في أن تبيت ليلتها في تلك المدافن.

الاستعدادت لم تكن كثيرةً، لكنها كانت أعجب من العجب، سلمت هند متعلقاتها لحسنية وأوصتها إن حدث لها مكروه أن تخبر زوجها

أنها فعلت كل هذا من أجل حياتهما معًا، قامت بتوقيع إقرار بإعفائهم من أية أضرار تلحق بها، وهو ما جعل التوتر يتسلل إليها بعد أن كانت متيقنة مما تفعله، ثم تضاعف هذا التوتر حين جعلتها النسوة تستحم بماء غُسل أحد المتوفين قريبًا، وهو ما فعلته بجسد يرتعش من القشعريرة، قبل أن يعقدوا شعرها الأسود في ضفائر عريضة، طوال اليوم لم يقدموا لها سوى الخضروات الورقية من خس وجرجير وكرفس وحرموها من جميع المشروبات، قبيل المغرب ألبسوها جلبابًا أبيض أقرب إلى الكفن ويشمك بنفس اللون وجعلوها تتوضأ وتصلي ثم خرجوا بها من باب الدار الخلفي في الخفاء، حيث سلمها النسوة إلى أعرابي عجوز محنيّ الظهر.

سارت خلفه هند وهي في قمة قلقها، في ضوء الغروب، لاحظت أنه قد ربط حبلًا غليظًا حول وسطه مثل الحزام وهناك كيس صغير من القماش مدلى منه، ظلت تنظر ورائها، تلتمس أي وجه صديق، حتى بلغت شجرة الجميز العجيبة، دار حولها العجوز سبع مرات وفعلت هند نفس الشيء حتى لاحظت مدقًا ترابيًا كادت أن تقسم أنه لم يكن موجودًا من قبل، سلكاه وخرجا من القرية وصعدا تلًا حتى بلغا مدافن شُيّدت فوق مسطبة طبيعية في الجانب الشرقي للجبل، تطل على البلدة بالأسفل.

مستعينًا بضوء القمر الأحدب، وبدون كلمة واحدة، قادها الأعرابي بين القبور، بعضها كان قصيرًا لا يتعدى النصف متر ارتفاعًا والمترين طولًا والآخر توحش وانضمت إليه قبور أخرى لنفس العائلة حتى صار أشبه ببيت لا نوافذ له ولا أبواب، انقبض قلبها وهي تسير في الممرات الترابية التي يملؤها الحصى والطوب، كادت أن تتعثر

فيهما أكثر من مرة، حتى بلغا أعلى التل حيث كانت تنتظرهم جميزة أخرى، منحنية عديمة الأوراق تهم بالانقضاض عليها، شجرة مغروسة في ميدان تلتقي عنده مدقات وممرات المقابر.

ذهب الشيخ منحني الظهر للشجرة ونزل على ركبته اليمنى لينفض التراب من بقعة بعينها وينظفها من الصخور والأوساخ، التفت بعدها لهند وأشار لها كي تأتي لتجلس في المساحة الصغيرة التي نظفها لتوه ونزع عن وسطه الحبل.

تذكرت حين سألت قريبة حسنية في أول ليلة جاءت فيها هنا.

«هتربطوني في الشجرة؟»

«علشان متهربيش من اللي هتشوفيه»، هكذا أجابتها.

ابتلعت هند ريقها وأغمضت عينيها لتستجمع شجاعتها، قامت بعدّ أنفاسها حتى هدأ روعها قليلًا قبل أن تفتح عينيها وتخطو في اتجاه الشجرة، مدت ذراعها للأعرابي ذي الوجه المتغضن قاسي النظرات فقام بعقد الحبل حول رسغها ثم ألقى بالحبل فوق الفرع الغليظ، ثبته خلف نتوء ضخم ثم استقبل طرفه الآخر ليحكم به العقدة حول رسغ هند، تأكد بعدها من قوة الربطة قبل أن يهز رأسه لها وينصرف.

لكنه لم ينصرف في اتجاه القرية التي جاءوا منها، بل نزل التل من جهة أخرى رأت فيها هند بلدةً بأكملها من بيوت ترابية اللون تخلو من كل مظاهر الحياة، انقبض قلبها من مشهد الأطلال المهجورة التي ما لبثت أن تلاشت من نظرها بعد أن اختفى الأعرابي أسفل التل، نظرت فوقها فوجدت أن السحب قد حجبت ضوء القمر وسقط

ظلها فوق بلدة الأشباح تلك، هزت رأسها برفض تام للموقف التي وضعت نفسها فيه ثم ولت اهتمامها للمقابر التي سجنت فيها نفسها بكامل إرادتها.

رعدة خفيفة سرت في جسدها، برد وقلق وإثارة، وجدت نفسها في مساحة مفتوحة، أعلى التل، حولها مقابر بعضها داخل أسوار والآخر يحيط به سوار من الشجيرات والحشائش، ظلت متوجسةً لدقائق قليلة قبل أن تبتسم ساخرةً من خوفها، نظرت لمعصمها لتجد أن الحبل به طول يكفي لتجلس، ففعلت واستندت على جذع الشجرة، جالت بعينها في محيطها لدقائق أخرى لم تسمع فيها سوى صرير الحشرات واحتكاك الأفرع ببعضها وبالأسوار جراء ريح خفيفة داعبت الأتربة والأوراق الجافة.

ومر عليها الوقت بطيئًا.

امتدت الدقائق إلى ساعات وهند جالسة على تراب المقابر، تستند إلى جذع شجرة الجميز، تارةً تعبث بالرمال، وتارةً تجول بعينيها في دهاليز ومدقات المقابر التي فشل القمر في إنارتها، وتارةً أخرى - حين تلتقط أذناها حركةً ما - تحدق في الشجيرات القصيرة التي تحيط بأسوار القبور.

ثم لمحت ارتعاشاتٍ خفيفةً بين الأفرع الهشة و«خرفشة» خافتة على الأوراق الجافة، ضمت وشاحها الأبيض على كتفها طالبةً بعض الدفء ودققت النظر هناك، بحلقت بكل تركيز لكن... لا شيء، لا بد أنه خيالها الخصب ورغبتها الشديدة أن يحدث أي شيء.

استبد بها العطش، ثم الجوع، حتى بدأ النعاس يبارزها.

ثم... قبيل الفجر بدقائق قليلة... رأته.

انفرد نصفها العلوي بغتةً وجحظت عيناها ذعرًا بعد أن كانت على وشك الانغلاق حين لمحت ذلك الخروف الذي خرج من بين الشجيرات، وقف في الساحة الواسعة يحدق بها بعينه السليمة والتي تتماشى مع قرن منفرد يخرج من يسار جمجمته، تقهقرت لتلتصق بالشجرة وقالت وهي تلوح له كي تصرفه بعيدًا:

-بسم الله الرحمن الرحيم، إنت إيه؟ امشي، امشي!

ظل الخروف ذو القرن الواحد يحدق بها دون رد فعل، نظرت حولها لتنتقي حجرًا مناسبًا وقذفته به، لكنه لم يتحرك، بل استقبل الحجر في ساقه اليمنى دون أن يصرف عنها عينه السليمة، بدأت أعصابها تنفلت وفكرت أن تنادي الأعرابي لكنها كانت أضعف من يخرج منها صوت، بالإضافة إلى أنها متأكدة أنه لن يغيثها، هكذا كان الاتفاق، هي هنا حتى الصباح ولن يفك أسرها سوى خيط النهار الأبيض وهو يشق السماء.

جذبت قيدها لعلها تتمكن من التحرر لكنها توقفت وجفلت حين تحرك الخروف، انكمشت في مكانها لتراقبه بأنفاس مبهورة يسير متبخترًا ويقطع الساحة أمامها حتى بلغ الضلع البعيد.

وقبل أن يدخل بين الشجيرات... التفت إليها.

وابتسم.

لو أرادوا أن تقسم هند لهم بأغلظ الأيمان لأكدت أن الخروف قد ابتسم، وأن أسنانه كانت كأسنان البشر، ثم دخل بين الشجيرات

لينزل التل... ناحية السواد الذي كان بلدةً مهجورةً قبل ساعات.

قبل أن يعود قلبها ليعمل من جديد سمعت...

داتّاتّا...

أرهفت السمع وقد جف حلقها تمامًا.

لقد كان ذلك صوتَ طفلٍ رضيعٍ، مناغاة مثل التي يصدرها الأطفال حين يلعبون، وقد جاء من الضلع الذي خرج منه الخروف، من نفس البقعة، وسط الشجيرات الكثيفة.

في المشهد التالي كانت أطراف هند الأربعة قد شُلّت تمامًا وهرب الدم من وجهها، رغم ضوء القمر الضعيف لكنها لمحت ذلك الكف الدقيق الذي خرج من وسط الحشائش ليخطو فوق الحاجز المصنوع من طبقة واحدة من الطوب الأحمر، طفقت تراقبه بعيون جاحظة وهو يهبط ليستقر على تراب الساحة.

ثم كفًا آخر، استقر بجوار الأول.

بعدها ظهر الرأس، كرة خفيفة الشعر انبثقت لتوها من بين الشجيرات.

داتّاتّا...

هكذا خرج منه الصوت المرتعش، تسمرت هند وتجمدت الدموع في عينيها الجاحظتين وهي تحدق مصعوقة في الرضيع الذي خرج من وسط الحشائش ليستقر فوق التراب، لا ترى وجهه، فقط قمة رأسه وهو يحدق في الأرض أمامه، يهتز للأمام والخلف كما يفعل

الطفل الذي يجرب الحبو لأول مرة.

داثاثا...

نظرت حولها للمرة الألف، تبحث عن شاهد لهذا الجنون أو معين ينقذها منه، لعنت نفسها وأفكارها السوداء ثم انتبهت للطفل، الذي توقف عن الاهتزاز... للحظة، قبل أن...

ينطلق حبوًا في اتجاهها.

انتفضت هند واقفةً لتحاول تحرير نفسها من قيودها وهي تكرر «سامحني يا رب... سامحني يا رب». جذبتها بكل قوتها، أدخلت أصابعها بين العقد والعنايا، حاولت بأسنانها... لكن النتيجة صفر، نظرت للرضيع لتجده يقطع المسافة الترابية الخالية بسرعة خرافية، لا ترى تفاصيله بدقة بسبب التراب الذي يثيره لكنه في نظرها كان أشبه بعنكبوت عملاق.

صرخت بكل ما تحمل من ذعر مستنجدةً بالحي والميت وهي تدور حول الشجرة كي تستتر خلفها، لكن الرضيع الجهنمي انحرف ليأتيها من يمينها، أكملت الدورة حول الشجرة لتهرب منه، فما كان منه سوى أن دار حول الشجرة هو الآخر على أطرافه الأربعة، وهو يناغي نفسه...

داثاثا...

مذعورةً، ظلت هند تدور حول الشجرة حتى انعقد الحبل ووجدت نفسها ملتصقةً بجذع الشجرة، غير قادرة على الحركة، دارت عيناها في مقلتيها باحثةً عن المسخ دقيق الحجم الذي كان يصدر الصوت

المرعب كجنين الغيلان، توقفت عن محاولاتها الخرقاء للفكاك وأنصتت بأنفاس مبهورة وعيون جاحظة، حتى رأت بطرف عينيها - رغم أنه كان في ظل الشجرة الذي صنعه القمر - أصابع دقيقة تستقر على الطين بجوارها، ثم الكف الآخر، فالرأس الذي ينظر لأسفل والذي تخيلته هند عليه وجه من أبشع كوابيسها.

توقف المسخ الصغير عن الحبو حول الشجرة وحرك رأسه كما تفعل الطيور، محاولًا استنتاج مكانها، تحركت هند لليسار كي تبتعد عنه، لكن كلما استمرت في دورانها كلما قَصر القيد وفقدت جزءًا من حريتها، والنتيجة الحتمية هى أنها قد التصقت تمامًا بالجميزة كما لو كانت مرسومةً على جذعها، امتدت يديها في كلا الجانبين كالمصلوبة والتصقت وجنتيها اليسرى بلحاء الشجرة، فقط عينيها هي ما كانت تستطيع تحريكه، لقد سجنت نفسها بنفسها.

لم تعد تراه، لم تعد تشعر سوى بالسكون المقبض الذي تتخلله احتكاك الأفرع والأوراق ببعضها مصحوبة بصرير حشرات الليل وصفير الرياح، اتسعت عينا هند عن آخرهما وهي تلمح بطرفها ذلك الكائن الذي يشبه الرضيع - رغم أنها متأكدة أنه أبعد ما يكون عن البشر - وهو يظهر أسفل منها، بالقرب من قدمها اليمنى.

داتّاتّا...

-هش! هش!

هكذا صاحت بفم معوج بسبب القيد الذي يدهس وجهها في الشجرة، جحظت عيناها، وحاولت إبعاده عنها، وقد بلغ منها الهلع مبلغه.

ثم انقضّ عليها.

رغم تشنجاتها وصرخاتها لكنه نجح في تسلقها حتى وصل إلى بطنها.

بطرف عينيها لمحته ينظر إليها.

ورأت وجهه.

قبل أن...

يدخل فيها.

(5)

بحلقت في وجه غريب المثلث شبيه الفنان «إستيفان روستي»، وطرفت عيني بإيقاع مطرد، وانتظرت بقية القصة.

-أوعك تقول إنك مش هتكمل الحكاية! إيه اللي حصل لها في المقابر؟ إيه تفسير كل ده؟

-قلت لك قبل كده، التفسير في القصة نفسها.

-وإنت عرفت القصة دي إزاي إن شاء الله؟

قلتها بتحفز وغيظ فابتسم في وجهي وهو يقوم بالرتوش الأخيرة في تصفيفة شعري.

-هند دلوقتي عندها عيل ورجعت تاني للمحاماة، وابنها نزل على إيدي.

رن هاتفي فرفعت يدي لعم غريب كي يتوقف عن تهذيب مؤخرة رأسي فتراجع في كياسة رئيس الخدم ليتركني أجيب زينة.

- عملت إيه؟

هكذا سألتني لحظة سماع صوتي، فاعتدلت لأفرد جسدي.

-لسه ما وصلتش.

-إيه؟ ميعادك كان من ربع ساعة!

كادت أن تخرق أذني بصياحها فنهضت ونزعت الغطاء الأخضر.

-في السكة أهوه والله، خمس دقايق وأوصل.

-عارف لو راحت منك الشغلانة دي...

سكتت لحظةً قبل أن تنطق بما ظننته مزاحًا عجيبًا - رغم أن النبرة لم تكن توحي بذلك على الإطلاق:

-هعضك.

هكذا زمجرت في الطرف الأخر رغم محاولتها أن يخرج صوتها رقيقًا مرحًا، لسبب ما تحفزت عضلاتي بغتةً وتقلصت معدتي من هذه الكلمة البسيطة، لكني سرعان ما تخطيتها وأشرت لعم غريب أن يخبرني كم كلفتني الحلاقة فرفع كفه ولوح بإبهامه أنه لن يحاسبني، أومأت له برأسي شاكرًا قبل أن أنطلق خارجًا من الدكان والهاتف على أذني، ارتميت في الكرسي بجوار السائق وأنا أقول لزينة:

-لا تروح مني إيه؟ ربنا هيسهلها إن شاء الله.

-أنا عارفة إنت قدها، بالتوفيق يا حبيبي.

رميت صالون غريب بنظرة أخيرة خاطفة ولوهلة شعرت أن الإضاءة تنسحب من على وجهه الطويل الحليق، ثم انطفأت أنوار الدكان وعاد الوضع كما كان، غريب يقف بجوار كرسي الحلاقة بينما غرق الصالون كله في ما يشبه الظلام.

تشتت انتباهي حين سمعت:

-تؤ... ما تنجز يا باشمهندس، إقفل الباب.

***

رسمت زينة خطتها بإحكام، لديها بطولة عالم في إحدى الدول الأوروبية وستخبر أهلها أنها ستسافر لما يقرب من الشهر قبلها للتدريب مع المنتخب، ومن هناك ستخبرهم بأن أحد النوادي العالمية عرض عليها الالتحاق به وستضطر للبقاء بضعة أسابيع أخرى للاختبارات، سيقيم أبوها الدنيا ويقعدها بالطبع ويتوعدها بالعقاب الشديد لكنه لن يصبح أمامه سوى انتظارها حتى تعود، في تلك الأثناء سنكون قد تزوجنا، لكنها ليست النهاية، فالدكتور سراج لن يستسلم بهذه السهولة وسيحاول تطليقنا حين يصله الخبر؛ ولهذا فقد قررت زينة ألا تعود لأهلها سوى بطفل مني، الشيء الوحيد الذي سيثني أباها عن أية محاولات مستقبلية لخراب حياة ابنته.

لكن هذا لم يمنعني من أن أحاول أن أتصل بأبيها دون علمها أكثر من مرة، لكنه كان يُنهي المكالمة في اللحظة التي يعرف هوية المتصل، ولأنه دكتور سراج، أسخف كائن على وجه الأرض، فهو لم يكتفِ بذلك، بل كان يجيبني ثم ينهي المكالمة بعد ثانية، فقط ليجعلني أغرم ثمنها، وكان هذا كافيًا لقتل ذلك الوازع العنيد الذي ظل يؤرقني وجعلني أنام بلا تأنيب ضمير لأحلم بنفسي وأنا أدفس الهاتف في حلقه بقدمي من الغيظ.

كانت زينة هي المحرك التوربيني الذي يقود المسيرة، تركت لها حرية تجهيز عش الزوجية - في حدود الإمكانيات المتاحة - واكتفيت بالمراقبة من بعيد، كان وجودها في حياتي دافعًا كافيًا ليجعلني آكل الحديد، فنجحت في الحصول على المنصب الجديد كمدير مشروع، عادت الابتسامة إلى وجهي واستعدت ثقتي بنفسي وإقبالي على الحياة.

***

ثم جاء يوم عرسي، لم تستعن زينة بأي من صديقاتها أو زميلاتها الرياضيات خوفًا من أن يتسرب الخبر لأهلها وأخذت كل شيء على عاتقها، تحولت أمامي لقائد حربي ينظم الصفوف والأولويات ويرتب حياتنا، جعلتني أؤجر شقة صغيرة في المعادي حتى لا تترك للصدفة مجالًا، فربما ينقل أحدهم خبر زواجنا إلى دكتور سراج فيأتي و«يطب» علينا بصحبة كتيبة الإعدام.

عقد القران تم في أضيق الحدود، أنا وزينة والمأذون واثنان شهود اختطفتهم زينة من الشارع، كنت وكأنني مُسيَّرٌ لا إرادة لي، بطل قصة يحركه مؤلفها بلا أدنى اهتمام بمخاوفي وهمومي، قادت زينة المسيرة وانصعت لها مبهورًا بشخصيتها وإصرارها وممتنًا لتعلقها بي، وسرعان ما وجدنا نفسينا أمام باب الشقة وحدنا، وحينها فقط اختفت زينة القائدة الحربية وظهرت فراشتي الخجول، خَفَت صوتها حتى تلاشى أسفل البرقع الأبيض وتركت لي الدفة كي أقودها لفراش الزوجية.

شقتنا صغيرة، بالدور السابع من عمارة مكررة حتى الملل في المعادي الجديدة، غرفتان على يسار المدخل ومطبخ وحمام إلى اليمين، يتراوحون بين العشرة أمتار مربعة إلى عشرين، صالة كبيرة تفصل الغرف الأربعة تنتهي بزجاج نافذة بعرض الصالة.

دلفنا الشقة وأغلقنا الباب خلفنا في صمت، لم نتبادل الكثير من الحديث، بل استسلمنا لإيقاع الليلة الهادئ، وبعد أقل من ساعة كانت أمنية حياتي بين ذراعيّ، اختبأت زينة بين ضلوعي واستمعت

لكلمات كانت محبوسةً في صدري عمري كله، خرجت عشوائية، بلا حساب، بلا تفكير ولا ترتيب ولا تدبير، خرجت عارية من القلق والخوف من المستقبل.

لم أنم ليلتها حتى غفت هي، مستكينة، هشة، فاتنة.

ولكن تلك الهشة المستكينة، من قوة المشاعر بيننا، تركت على ذراعي آثارَ عضة عميقة، لم تؤلمني، ولم أذكر متى أعطتني إياها، لكنها كانت آثارًا مميزةً للغاية.

كان بينها فراغ.

***

وبالطبع تناسيت الموضوع، خصوصًا أن الأيام التالية مرت كأنها حلم، نسمة رقيقة مرت فوق حياتي الكئيبة أحالتها لمعزوفة موسيقية رائعة، ولم ينقضِ أسبوع العسل حتى فتحت الموضوع مرةً أخرى.

-ضميري يؤنبني يا زينة، إنت مش متضايقة من الكدب على أهلك؟

رفعت عينيها ببطء وتأملتني لوهلة باحثةً عن الرد، لكن ما كان منها سوى أن نهضت وتركتني قائلة:

-مش دلوقتي، هم فاهمين إني في بولندا، قصادنا شهر.

مرت بعدها أسابيع، انشغلت بالمشروع الجديد مما قلّص من الوقت الذي كنت أقضيه مع زينة لكنه لم يؤثر بشكل كبير على علاقتنا، اشتركت في جيم قريب وقضت معظم وقتها في التدريب

وتحضير رسالة الماجستير، لكن شعوري بأن وضعنا لم يكن صحيحًا مائة بالمائة كان ينغص عليّ سعادتي.

وحين فتحت الموضوع معها ثانيةً لم تجد بدًا سوى أن تستجيب خصوصًا أنه قد مر شهران بالتمام والكمال على زواجنا وقد استنفذت كل حججها مع والدها، شعرت بها تصارع كبرياءها وهي ممسكة بهاتفها المحمول واسم أبيها واضح أمامها، نظرت إليّ فهززت لها رأسي مشجعًا فحسمت أمرها وضغطت زر الاتصال. نهضت من جلستها وذهبت لغرفة النوم وأغلقت عليها الباب، تركتها كي لا أزيد من الضغط عليها في هذا الموقف وإن ذهبت لأقف بجوار الغرفة متصنتًا، جاء نصف الحوار التليفوني كالآتي:

-أنا في مصر يا بابا، ومن ساعتها.

-...

-علشان أنا اتجوزت.

-...

-فتحي.

-...

-بابا، اسمعني!

لم يختلف باقي الحوار عما كان قبل زواجنا، محاولات فاشلة من زينة كي تشرح لأبيها وجهة نظرها تلاها دفاع مستميت عن شخصي، ثم هجوم مضاد اعتراضًا على تحكمه فيها وعدم ثقته في

آرائها واختياراتها، أي تحكُّم؟ تساءلت، من كان يستطيع أن يرفض لزينة طلبًا سوى في زواجي منها؟

لم أتمكن بالطبع من سماع ردود دكتور سراج وإن كنت لا أود أن أفعل، هرب الدم مني وتقلصت أمعائي شاعرًا أنني كرة يضربها كلٌ من الأب وابنته بكل قوته في اتجاه الآخر، في النهاية خرجت زينة من الغرفة صائحة:

-مش قلتلك! أهوه عايزني أتطلق منك، والله ما أنا رايحاله!

ثم أغلقت الباب بكل عنف لأنتفض من الإثارة وهول الموقف، ظللت متخشبًا مكاني كالتمثال قبل أن أستوعب حقيقة ما حدث، فقد انتهت فترة شهر العسل وحان وقت الاستيقاظ من الحلم.

***

في الأيام التالية فكرت في الاتصال بدكتور سراج لكني لم أجرؤ، تركت زينة على خط المواجهة وتراجعت لمقاعد المتفرجين علها تستطيع إقناع أبيها بما فعلناه، كانا جبلَين من العناد، هي لم تسمح له حتى بأن يلومها وهو رفض أن يسامحها، بل ومنع أمها من زيارتنا، كنت أشعر أني أنسحق بينهما، وكذلك كان حال أمها بكل تأكيد، ندور بلا حيلة بين القطبين المستبدين حتى قررت أن آخذ الخطوة وأهاتفه مرةً أخيرة.

خرجت للصالة واستندت على إطار السور الذي تطل منه النافذة العريضة وقمت بالمكالمة، ارتعشت أصابعي من فرط الإثارة وأنا أستمع إلى نغمة الاتصال ثم أبعد الهاتف لأنظر للهاتف وأعيده على

أذني، مرات عديدة، لا يجيبني وفي النهاية رفض المكالمة.

انتفضت مذعورًا حتى كاد هاتفي أن يقع مني حين سمعت:

-أوعك تكون بتكلم دكتور سراج!

التفتُّ لأجد زينة قد عادت من الخارج وتقف ورائي عاقدة ذراعيها أمام صدرها.

-لا... م... ين؟ دكتور سراج مين؟ لا، ك... كنت بكلم الشغل.

توقعت أن تستمر في استجوابي وهيأت نفسي لمعركة غير متكافئة لكنها فاجئتني بالانفجار باكية، هببت إليها واحتضنتها لأهدئ من روعها، عدلتها للأريكة وسألتها عما بها، بعد أن هدأ بكاؤها رفعت عينيها إليّ وقالت:

-أنا كنت عند الدكتور النهارده يا فتحي.

-دكتور؟

-النسا.

-مقلتليش يعني، مش كنت...

-مش مهم يا فتحي، مش مهم! المهم إنه قالي إني مبخلفش.

***

ليلتها لم يتمكن أيٌّ منا من النوم، ظلت زينة في الحمام معظم الوقت، تبكي، بينما رقدت على جانبي الأيسر في الفراش، شاردًا من زجاج النافذة، كان قلبي يكاد ينفطر من أجلها، فهناك جانب

مظلم في شخصية البطلة الرياضية، وهو أنها لا تتقبل الهزيمة، وفي تحدٍّ مزدوج ضد الطبيعة وأبيها، حتمًا هي من سينكسر، وسقوطها سيكون مريعًا.

مرت الدقائق بطيئةً، وامتدت لساعات سقطت فيها جفوني عدة مرات لأستيقظ وأجد زينة في وضع مختلف كل مرة، تارةً أراها واقفة أمام النافذة، محدقة في لا شيء، تارةً أشعر بها تتقلب بجواري على الفراش، تارةً أسمعها في المطبخ وتارةً أخرى...

أرى وجه جاموس ينظر إليّ من النافذة.

في الطابق السابع.

انتفضت جالسًا وقد هرب مني النعاس دفعةً واحدة لأحدق في رأس الجاموس الذي كان يحدق بي بدوره، ثم ببطء شديد أنزل فكه السفلي الذي انعوج كأنه على وشك المضغ، ثم استمر في الانفتاح حتى ظننت أنه سيصرخ، وفي نفس اللحظة سمعت الصيحة... كلمة ما لم أستبنها.

حانت مني التفاتة خاطفة لباب الغرفة وحين عدت لأنظر للنافذة كان رأس الجاموس قد اختفى، هززت رأسي رافضًا هذه التهيؤات وأضغاث الأحلام وهرعت خارجًا من الغرفة... ليستقبلني هدوء مُقلِق، أرهفت السمع للحظة، حتى سمعت... همسًا... في المطبخ.

تقدمت لأقف خلف الباب الموارب لأسمع زينة تتكلم.

مع من؟

دخلت المطبخ.

استقبلتني زينة بنظرة وابتسامة عريضة وهي جالسة بالطاولة المعدنية الصغيرة وفي فمها ملعقة بها آثار آيس كريم، نظرت حولي باحثًا عن ذلك الذي كانت تتكلم معه، لكن المطبخ الصغير لا يمكن لفأر أن يختبئ به، ولم يكن معها هاتفها.

-بتكلمي مين؟

-نفسي يا فتحي، بكلم نفسي! من غُلبي يا أخي!

هكذا هتفت وهي تنهض لتلقي الملعقة في الحوض وتذهب لتضع علبة الآيس كريم في الفريزر، خرجت بعدها من المطبخ وتركتني جاحظ العينين مصدومًا حائرًا.

هناك خطب ما.

***

في اليوم التالي كنت شارد الذهن وتركت العم تؤ يقود السيارة دون أن نتبادل كلمةً واحدةً، وهذا حسب الجدول الذي أعطيته إياه في أول اليوم، هز رأسه مثل الهنود ورمى لي بـ«تؤ» واحدة حين قلت له «اطلع» في اللحظة التي جلست فيها بجواره، لم ننطق بكلمة بعدها طيلة ساعات العمل، نأتي الموقع الذي لا يزال تحت الإنشاء من أطرافه ونستمع للقناة «004» التي خرج منها خروشة استاتيكية مثيرة للأعصاب، هذا وقد أتحفتنا حزمة الأعشاب الجهنمية المعلقة على المرآة برائحتها حتى أطفأ تؤ الراديو وقال:

-ما تكلمهم في الشركة يا باشمهندس خليهم يدونا غِفارة شغلكم كله، أهوه تعوضونا شوية عن الأرض اللي نهبتوها منا بتراب

الفلوس.

مططت شفتي ممتعضًا من إلحاح مرسي في هذا الطلب، الموضوع الوحيد الذي «يثرثر» فيه، لو صح التعبير في وصف طرحه هذا السؤال كل بضعة أسابيع بالـ«ثرثرة».

-يا مرسي... يا مرسي... قلتلك ميت ألف مرة، كل منطقة ولها ظروفها، يعني ينفع في الفلاحين نجيب حد من برة الناحية يحرس الأبراج فيه؟

-تؤ...

قالها بقرف معترضًا وهو يدور بالمقود لننعطف يسارًا، قرف يكفي لإغراق الكرة الأرضية، فصعرت له خدي وطفقت أراقب الطريق.

عندما انتصف اليوم قمت بالاتصال بزينة، مسكينة، كانت تتمنى الإنجاب سريعًا، لكن هل كان بسبب غريزة الأمومة، أم لعشقها إياي؟ أم تراها تريد أن تثبت لدكتور سراج أن قرارها كان صائبًا وأنه هو المخطئ؟ أجابت اتصالي بنبرة ناعسة منهزمة فما كان مني سوى أن صحت فيها:

-جرى إيه يا زينة؟ فين البطلة اللي كانت بتنتصر على أي تحدي؟

-نايمة يا فتحي، البطلة نايمة.

-بقولك إيه، ممكن أطلب منك طلب؟

-مش قادرة أعمل حاجة.

-انزلي روحي الكوافير اللي بتروحي له في زايد، صدقيني هتفرق

معاكي.

لم تجبني على الفور، فأردفت:

-علشان خاطري، عايز أرجع ألاقي قمر.

-وأنا مش قمر دلوقتي؟

شعرت ببعض المرح في نبرتها فتشجعت وقلت:

-طول عمرك قمر، بس عايزك قمرين.

-وإنت طول عمرك ملكش في الكلام الحلو، إيه الغزل الرخيص ده، حاضر يا فتحي، هفكر.

لاحظت أن العم تؤ قد أدار المقود ليعود أدراجه فأنهيت المكالمة.

-سلام دلوقتي يا زنزونة، شكلي هرتكب جريمة.

التفت إليّ تؤ مستائلًا.

-رايح فين؟ إطلع على مبنى 14، بيرموا كابلات الشبكة دلوقتي.

-الراحة يا باشمهندز، نشرب كوباية شاي ونرجع نكمل.

عضضت شفتيّ غيظًا وقلت:

-بقولك إيه يا تؤ، قصدي يا مرسي، لف وإرجع بينا على مبنى 14.

ما كان منه سوى أن أوقف السيارة على جنب والتقط هاتفه، فزجرته قائلًا:

-إنزل يا مرسي، إنزل، خليني أخلص وأرجع للغلبانة اللي في البيت

دي.

ثم تذكرت موقفًا مشابهًا منذ ما يزيد عن الشهرين، يوم قراءة الفاتحة التي لم تُقرأ، وانتبهت لنقطة كانت غائبةً عني، السبب الحقيقي لتعنت العم تؤ وإصراره على الراحة.

-مرسي... هو إيه اللي بيحصل لو أخدت شارع فاضي سبع مرات رايح جاي؟

-هتشوف حاجة مكانتش موجودة قبل كدة.

قالها ببساطة والتقط علبة سجائره والولاعة وارتجل من السيارة النقل بالتصوير البطيء، وهي السرعة القصوى للعم تؤ، فما كان مني سوى أن أنتقل لكرسيه وأسأله عبر النافذة:

-ولو شفت حاجة، هيحصل إيه؟

التفت ليرمقني بنظرة طويلة قبل أن يتمخض عن إجابة أعجب من سابقتها:

-حياتك مش هترجع زي الأول.

بحلقت لوهلة في ملامحه الكسولة بينما وقف يرمقني بكل برود قبل أن يستدير ليذهب للكاراڤان الخاص بالموظفين بخطوات يحسده عليها الحلزون، هززت رأسي لأفيق من حالة الكسل التي نقلتها إليّ نظرته الناعسة وأدرت المحرك لأنطلق عائدًا لمبنى 14، كلامه يرن في أذني، ومعه أحداث مررت بها في الشهور السابقة، ثم بدأ عقلي يعمل بكل طاقته.

هل ممكن أن تكون هناك صلة بين ما يحدث لي وحكايات أسطى غريب؟ بدايةً من العضة للزواج بدون موافقة أهل زينة لعدم قدرتها على الإنجاب...

يا إلهي...

«التفسير في القصة نفسها»...

رفض عقلي هذا المنطق بكل خلاياه، لكن شيئًا ما في قلبي كان يخبرني أن أستدير بالسيارة النقل لأقطع الشارع غير المأهول ثلاثة مرات أخريات لأكملهم سبعة.

وهذا ما فعلته بالضبط.

تطورات المشهد هي كما كانت في المرتين السابقتين، في الدورة الخامسة تبدأ السماء في التلبد بالغيوم، والأصوات في الخفوت، وفي السادسة بدأت الحياة تتلاشى من حولي، البشر أولًا، ثم الطيور والحيوانات بعدهم، ثم لاحظت لافتاتٍ لم تكن موجودة من قبل، وحين مررت بإحداها وجدت عليها آيات قرانية، بالتحديد سورة الناس، نظرت في طرفيّ الشارع باحثًا عن العمال والمهندسين وعربات النقل اللذين كانوا يسيرون فيه قبلها بدقائق، لكن لا شيء، فقط عشرات الأمتار من الأسفلت ترقص فيها الأتربة على أنغام الرياح، أما الأصوات، فكلها بعيدة، كأن هناك أميالًا تفصلنا عن المدينة.

كاد عقلي أن ينفجر من حيرته، حتى لمحت ما جعلني أضغط المكابح بكل قوتي، تسمرت مكاني مذهولًا وعينيّ عالقتان بتلك

اللافتة المنيرة بالضوء الأخضر.

«صالون غريب».

وهذه المرة كنت متأكدًا أنه لم يكن هناك قبلها بعوانٍ، فنحن الآن داخل مشروع خاص ملمٌ أنا بكل تفاصيله، منتجع سكني لم يتم الانتهاء منه بعد.

نظرت حولي للشارع الذي يفصل مباني المشروع الخرسانية غير المكتملة عن سور الموقع، بضع عمارات متباعدة قصيرات كالحات اللون، لا يسكنها سوى الرياح والأتربة، نوافذ خالية الإطارات، أبواب وبقايا مواد بناء متناثرة هنا وهناك، وفي وسط كل هذا، في الطابق الأرضي بإحدى تلك العمارات، رأيت لافتة الحلاق الرجالي.

هي بعينها، القاترينة العريضة التي يحيط بها سوار من الأنوار الخضراء الدقيقة والتي تتعارض مع المحتوى خافت الإضاءة لمحتوى الدكان، الكرسى الوحيد الذى يتوسط مساحته التى لا تتعدي العشرين متر مربع، الستارة الخضراء في الخلفية وذلك الذي يقف كالتمثال خلف كرسي الحلاقة.

لا إراديًا رفعت يدي بالتحية ليفاجئني غريب بإنارة ضوء المحل وانحناءة وقورة، أومأ لي وهو يلوح بكف يده داعيًا إياي للدخول، وهو ما فعلته مسلوب الإرادة، منبهرًا.

دلفت الدكان متوجسًا، جلت ببصري في الصالون، نفس الأريكة المتوحشة، صور الزبائن، أدوات الحلاقة القديمة النظيفة، بحثت عن كاميرا خفية أو مرآة ذات وجهين، لكن لم أجد أيًا منهما، وقفت بعد

نزولي درجة السلم، أسفل أجراس الباب المعلقة، ألتهم المكان بعينيّ، بينما ظل غريب كما هو، ابتسامة رسمية ولحسة سريعة بلسانه لشاربه الرفيع. انتظر حتى مسحت المحل من الأرض للسقف لينحني قائلًا:

-اتفضل يا مسيو، أؤمر.

-هو إيه اللي أؤمر؟ إنت بتعمل إيه هنا؟

-تشرب إيه الأول «ثم نادى» يا حمامصي!

-مش كان نزهي؟ وبعد كده بقى رشاد؟ بقولك إيه، مش هتخيل عليا المرة دي.

هكذا هتفت وأنا أشيح بإصبعي بالرفض، لا بد أن أكون إيجابيًا، أن أمسك بدفة أموري، لا بد أن أستحق زينة، وما أن استحضرت وجهها حتى انطلقت ناحية الستارة هاتفًا:

-وهو فين اللي إنت بتنادي عليه ده؟ إلا ما فيه حد ظهر من ساعة ما...

بترت جملتي بعد أن رفعت الستارة لأرى أمامي غرفة مربعة صغيرة بباب في الحائط المقابل للستارة، غرفة لا تزيد عن المترين عرضًا ممتلئة لنصف طولي...

بالشعر.

حدقت في الكومة التي هي خليط من جميع أنواع الشعور، الملتوي والناعم والخشن، الأسود والبني والرمادي، مكدسة في تل

صغير في منتصف الغرفة.

-هو إيه ده؟ بتعمل إيه بالشعر ده كله؟

-الشعر ده له حكاية، بس مش ليك.

هكذا أجابني بدبلوماسية مستفزة فنفضت طرف الستارة من يدي بعنف صائحًا:

-ما تبطل شغل التلات ورقات ده! حكاية إيه ونيلة إيه؟ أنا حياتي خرجت بره سيطرتي! وحكاياتك العجيبة دي بتحصل لي في الحقيقة.

-أنا قلت لك الحل فين، بس إنت اللي مش بتسمع كويس.

أخذت نفسًا عميقًا وحاولت السيطرة على أعصابي، وقد تسبب فقداني السيطرة على مجريات أموري من بين زينة وأبيها وذلك الحلاق الغامض في غضب مكبوت.

-تقدر تقول لي إزاي اللي بسمعه في حكاياتك بيتكرر لي في الحقيقة؟

-السر في التفاصيل يا مسيو، وأنت ليك في ذمتي خمس حكايات، اسمعهم وإنت تعرف.

عضضت على شفتي غيظًا لكنه أشار إلى الكرسي وقال:

-شعر ولا دقن يا إكسلانس؟

قالها وفي نفس اللحظة ظهر المئزر الأخضر في يده من العدم وحركه في الهواء كمصارع الثيران وهو يقول مبتسمًا:

-تشرب إيه؟ يا حمامصي!

-مش عايز أتنيل أشرب، ولا عايز أحلق ولا أسمع حكايات، ولو شفتك تاني هكسّر المحل ده على دماغك، مش ناقصة قرف.

قلتها وأنا أشيح بيدي في طريقي للخارج لأزيح الأجراس المعلقة، لمحته يتسمر مكانه كأنه إنسان آلي أصابه عطب ويقول:

-براحتك يا مسيو.

رغم أنني لم ألتفت إليه لكني شعرت بابتسامته التي عادت لتشق وجهه وبعينيه تخترق مؤخرة رأسي.

***

جئت بأمن المشروع ووقفت معهم أمام العمارة، أكاد أنفجر من الغيظ، أقسمت لهم بأغلظ الأيمان وذهبت لأدق على الجدران وأبحث في الأركان، لكن غريب وصالونه وكأن لم يكن لهما وجود، وفي النهاية اضطررت أن أتحجج بالإرهاق واستأذنت قبل أن يكتب مدير الأمن تقريرًا يحيلني للتحقيق أو لمستشفى الأمراض العقلية.

لكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، فقد تركت المشروع بعد أن ظلت نظرات العمال ورجال الأمن والملاحظين تلاحقني كأنني مجذوب على وشك «الشقلبة» أو السير على أطرافه الأربعة، بل وشعرت أن الظاهرة طاردتني إلى خارج الموقع، بعد أن لاحظت أن الناس ينظرون إليّ في الشوارع والطرقات، المارة والسائقون ومستخدمو المواصلات، ينظرون جميعًا إليّ، يراقبوني، حتى العم تؤ، ظل يرمقني بنظرات خاطفة كأنني أعجوبة الرب على أرضه، كنت أعلم

أن كل هذا في ذهني فقط، «بارانويا» سببها هذا اللعين المسمى غريب وحكاياته الأغرب، لكنه كان شعورًا مؤرقًا.

وكم كانت سعادتي غامرة حين عدت لأجد زينة قد عادت هي الأخرى، عادت زينة التي أعرفها، خرجت من المطبخ لحظة دخولي، شعرها الأسود المتموج يلمع وينسدل على أكتاف الفستان الأبيض الملائكي، تنفرج شفتاها الممتلئتان عن ابتسامة تظهر معها أسنانها البيضاء وغمازتاها الفاتنتان.

-ادخل غيّر هدومك يا تيحة لغاية ما أحضر السفرة.

مططت شفتيّ بانبهار وانحنيت لها في حركة سينمائية مبتسمًا.

-أيوه بقى، هو ده الكلام، وردة مفتحة يا ربي؟

-بلاش الكلام اللي يدوخ ده، يلا يلا.

قالتها ساخرة من كلمات الغزل المبتذل التي داعبتها بها فتركتها لأدخل الغرفة، شاعرًا بالانتصار، فلتذهب للجحيم يا غريب ولتذهب معك حكاياتك.

عشاء لطيف، ثم موسيقى أكثر رقةً، فرقصة طويلة احتضنت فيها زوجتي للمرة الأولى بدون أن يحوم فوقنا طيف دكتور سراج الغاضب دائمًا، حماى العزيز الذى نصّب نفسه حكمًا عليّ وعلى ابنته وعلى كل ما نفعله.

سويعات قليلة أمضيناها قبل أن تسند رأسها على كتفي وتقول:

-قابلت شخصية غريبة جدًا النهارده.

لا أعرف السبب، لكن شيئًا ما في جملتها تلك جعل شعر مؤخرة رأسي ينتصب.

-غريبة إزاي؟

-كوافير راجل ، بس غريب أوي، قعد يحكيلي قصص أغرب منه.

هنا توقفت عن الرقص وسكنت حركتي فرفعت رأسها عن كتفي لتنظر إليّ قائلة:

-فيه إيه؟

-ا... اسمه إيه؟

هكذا بادلت سؤالها بآخر.

-فتحي، مالك وشك ابيضّ ليه كده؟

-ردي عليا؟ اسمه إيه؟

قلتها بكل غضب وتوتر وأنا أبعد زينة عني التي انتقل إليها قلقي وصاحت:

-إيه الجنان ده؟ مالك؟ اسمه غريب يا سيدي، غريب.

شعرت بساقيّ تخونني أسفل مني فجلست لأستجمع نفسي.

-ووصلتي له إزاي الكوافير ده؟

-مش بسهولة، دخت في الشارع بتاعه السبع دوخات لغاية ما شفته.

هززت رأسي غير مصدق فجلست بجواري قائلة:

-فيه إيه يا فتحي؟ متخوفنيش.

رفعت رأسي لأنظر إلى وجهها الذي هرب منه الدم وقلت:

-وقال لك إيه؟ الحكاية الرابعة مش كده؟

-صح! إيه ده، عرفت إزاي؟ ده أنا استغربت جدًا لما قالي كده، بس مش هي دي المشكلة، القصة نفسها، فظيعة يا فتحي... شنيعة لأبعد الحدود.

أغمضت عينيّ وهززت رأسي رافضًا الهزيمة التي أنزلها بي غريب، لكن لا مناص، يجب أن أعرف ما الذي ينتظرني.

-احكي يا زينة، احكيلي القصة.

ابتلعت ريقها وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن تشخص بنظرها بعيدًا لتحكي لي أبشع ما سمعت في حياتي.

المنسيين

(6)

حكى غريب لزينة أن من مساوئ مهنة حلاق الصحة - طبيب الزمن الماضي - أنه أحيانًا كثيرة لا يملك اختيار مهامه، وبالأخص لو كانت بأمر حكومي، فقد كانت أيامًا سودًا تلك التي يستدعونه فيها لسجن العريش «13» كي يحلق رؤوس السجناء ويعالج الحالات المستعجلة، فقلما يأتي إلى السجن طبيب متخصص، وإن حدث فسيكون مغلوبًا على أمره مجبرًا على المجيء، وعندما يظهر هذا الطبيب المسكين يكون مكفهرًا لا يطيق نفسه ولا المرضى ولا اللحظة التي قرر فيها أن يمتهن هذه المهنة، يمضي دقائق سريعة متأففًا من هول الرائحة وقذارة استراحة الكشف قبل أن يهرع خارجًا كأنه قد حصل لتوه على الإفراج بعد قضاء عقوبة المؤبد. هذا غير سمعة سجن العريش «13» السيئة من معاملة وحشية وإيوائه لأحقر أنواع المجرمين العتاة والمهووسين فاقدي العقل.

وهكذا كان غريب يجد نفسه كل شهر منقادًا عبر البوابة المعدنية المصفحة، يتابع نفسه من خلال شاشة كاميرا المراقبة وهو ينتقل من منطقة لأخرى بينما يتم تفتيش حقيبة العدة على كل بوابة، ينتظر ظهور الصول ضرغام أو العسكري أبانوب كي ينقذونه من أنياب ونظرات ضابط الصف نجاتي، الذي كان لا يطيقه، لسبب ما، ومنذ اللحظة الأولى، فالضابط الثلاثيني ذو الشعر الأسود الحالك والوجه الطويل قد قرر أن غريب يقدم رِشًى للأمناء كي يأتوا به دونًا عن غيره، «سبوبة»، كما أطلق عليها، لا يدري الضابط الفذ أن غريب يتمنى العمى ولا القدوم لذلك السجن الكئيب المنعزل ولا

يصدق ما يقوله ضرغام أن لا أحد يريد التطوع لهذا العمل.

متى تطوع؟ لا يدري، لكن الضابط نجاتي لا يدرك أن معدته تتقلص حين يرى اسم الشاويش ضرغام على شاشة محموله ويرى وجهه الذي يملأه شارب عملاق يطل من خلالها، يتلفّت غريب بعدها حوله كأنه يبحث عن مكان يختبئ فيه، لكن في النهاية يستسلم ويجيبه.

كلما رآه الضابط نجاتي كان ينتفض واقفًا، متأهبًا للانقضاض عليه، ويقوم بفحص عدته بمنتهى التعنت بينما ترتعش ساقيّ غريب، يتوقف كثيرًا عند المقصات ويؤكد على ضرورة وجود تصريح خاص بكل أداة منهم. ومهما أقسم له غريب أنه قد جاء رغمًا عنه لا يصدقه ولو كرر كلامه هذا لسبه ناعتًا إياه بـ«الفأر القصير».

***

في تلك الليلة الباردة توقفت بغريب السيارة البوكس في فناء السجن مباشرةً بعد أن تخطوا البوابة الرئيسية والفرعية من بعدها، التفت ليسأل الصول شبيه الفنان «محمد رضا» الذي كان يجلس أمام المقود:

-مش هيفتشونا؟

هكذا سأل غريب متعجبًا فنفخ ضرغام في شاربه الكثيف ليجعله يرفرف فوق شفتيه ويغمغم:

-الأوامر قالت أجيبك في أسرع وقت.

-ونجاتي بيه، موافق؟

-دي أوامر جناب المأمور، هندخل من غير تفتيش ولا روتين ولا يحزنون.

قالها ضرغام بنفاذ صبر وهو يغلق باب السيارة بعنف ويشير إلى غريب كي يتبعه، تقلصت معدة غريب وقال:

-ليه القلق ده كله؟ إيه اللي بيحصل؟

-في مشكلة في العنبر (د).

-عنبر (د)؟ أول مرة أسمع إن فيه عنبر (د) هنا أساسًا.

توقف ضرغام ونظر إلى غريب لوهلة كأنه يقرر إن كان ينبغي عليه مشاركته أمر ما قبل أن يقرر عدم الرد على سؤاله، تقدم بعدها ليدخل من البوابة المعدنية الصغيرة التي فُتحت أمامهما لتوها بعد أن نجح في إثارة فضول غريب لأقصى حد، فمن يمشي أمامه الآن ليس ضرغام الذي يعرفه، ليس الصول غليظ القلب واللسان الذي يعرفه، بل بدا له... مهزوزًا، قلقًا، شاردًا، قبل أن ينتبه إلى شيء آخر.

لقد كان من أسباب كراهيته - وكراهية الناس كلها في حقيقة الأمر - لذلك المكان هو الرائحة، فمن قبل أن يدخل البوابة، من بداية المدق الذي يقود للسجن المنعزل في بطن الجبل، وتلك الرائحة تلازم الزائرين. لم يستطع غريب تمييز مصدرها لكنها كانت تزداد قوةً كلما اقترب من السجن، ولذلك فقد استنتج أنها تخرج من السجن نفسه، تظل بعدها في تزايد حتى البوابة الصغيرة التي تخطاها لتوه، ثم تبدأ في الانحسار حالما يتوجه عبر الممر الأيسر إلى استراحة الكشف ومكاتب الضباط.

لكن في تلك اللحظة كانت الرائحة لا تطاق، بل بدا له أنها تضاعفت عن المرات السابقة، كأن هناك مستودع نفايات أو «مقلب زبالة» هائلًا في مكان قريب وقد انفتح على مصراعيه متجشئًا غازاته المقززة.

حيا ضرغام طاقم العساكر وضباط الصف المحتشدين بعد البوابة فوضع غريب حقيبة العدة على السير المتحرك وانتظر أن يقوم العسكري بتشغيل الجهاز كي يتحرك السير وتبتلع الفتحة الحقيبة، لكنهم كانوا غير منتبهين إليه، حتى ضرغام، فقد سبقه واختفى في دهاليز مبنى الاستقبال حيث تناهى إلى مسامع غريب أصوات متباينة قادمة من هناك، انتظر لدقائق طويلة تلاشى فيها قلقه المعتاد كلما زار هذا السجن وسيطر عليه الفضول.

تدريجيًا بدأ غريب يشعر بما يشوب الجو من توتر، فقد تجاهل الجميع وجوده وانخرطوا في أحاديث جانبية وهمس يشوبه توجس وعصبية مفرطة، فالتقط حقيبته وانزوى في الركن، جلس على أحد الكراسي بعد أن تخطى جهاز الكشف عن الممنوعات وطفق يتابع المشهد في صمت ورهبة، فقد كانت المرة الأولى التي يرى فيها ذلك الكم من القلق على وجوه أفراد أمن معروفين بغلظتهم وقسوة قلوبهم، أصوات مشاحنة في مكان ما وصياح وأوامر تُلقى بعصبية بالغة، تحرك أفراد أمن البوابة التي ولج منها لتوه، والتي تُعتبر الأخيرة، وتركوه لحاله وسلكوا الممر القصير المضاء بمصابيح النيون الكئيبة.

يتفرع الممر أمامه إلى ثلاثة، يعرفهم جيدًا: الرئيسي يقود إلى منطقة استقبال المساجين وبعدها إلى بقية السجن، العنابر «أ»

لمرتكبي الجنايات الخفيفة و«ب» للمجرمين الخطرين و«ج» لمساجين أمن الدولة، الممر الأيمن يقود إلى مبنى الخدمات «المطبخ والمطعم وصالات الأنشطة»، ثم الأيسر الذي يقود إلى مقر الضباط والاستراحات ومكاتب تمثيل القطاعات المختلفة من وزارة الداخلية.

استمرت الأصوات في الممرات الثلاثة مؤكدةً ظنه: هناك خطب ما قلب الأمور في السجن واستدعى وجود جميع الضباط النبطشية، حتى من انتهت نوبته، استدعوه من سكنه وجاء ليقدم العون، ثم سمع غريب صوت مأمور السجن، العميد نظمي، مجلجلًا في أحد الأروقة ليعود التوتر إلى غريب بكل قوته، فمن أسوأ السيناريوهات أن يحدث تمرد في هذا السجن شديد الحراسة وهو موجود فيه أو أن يكون هناك وباء ما قد بدأ ينتشر، هذا ما توصل إليه، معتمدًا على خبراته السابقة وما حدث في البلد بعد «يناير ٢٠١١» قبلها بعامين فقط.

لكنه لم يتخيل أن ما يحدث كان أكثر خطورةً وغرابةً مما صوره له عقله.

بعد دقائق ظن من طولها أنهم قد نسيوه، جاءه أبانوب ليقوده حيث «المشكلة»، لم يكن العسكري الأسمر طويل القامة بشوشًا كعادته، بل متجهمًا مهمومًا في عجلة من أمره، أبانوب هو العسكري الوحيد الذي كان غريب يستطيع التفاهم معه، أسيوطي متعلم من بيت عريق، التقط غريب حقيبته ونهض ليلحق به سائلًا إياه عما يحدث، تبعه للممر الأيمن وقد بدأ يتبين بعض الأصوات التي جاءت

من الممر الرئيسي.

-المساجين عاملين حاجة؟

سأله وهما يقطعان الممر الأيمن تحت أنوار النيون البيضاء.

-عايزين ياكلوا.

-وإيه اللي مانعهم؟

وضع غريب يده على أنفه بعد سؤاله وقد صارت الرائحة لا تُطاق، بل وتزداد كلما اقتربا من المطبخ، لا بد أن المشكلة هناك، لكنه لم يستفسر لرهبة انتقلت له من أبانوب، ثم فُوجئ به ينعطف يمينًا مرةً أخرى قبل أن يصلا إلى المطبخ حيث وجد أمامه بابًا معدنيًا مفتوحًا لم يلحظه من قبل في المرات القليلة التي سار فيها في هذا الممر، من وراء الباب يمتد دهليز قذر بشع الرائحة ملطخ الجدران بسخام أسود وممتلئ بأشلاء وركام.

تسمر غريب مكانه حين رأى مأمور السجن بنفسه في نهاية الممر الجانبي الذي ينفتح على مساحة مربعة يتوسطها بئر ذو سور دائري قصير، الإضاءة كانت ضعيفة، مصباحان باهتان على الحائط المتسخ وهناك فتحة دائرية في السقف فوق البئر بالضبط تطل منها النجوم في السماء، ولذلك فقد أشعل الصول ضرغام كشاف هاتفه المحمول وهو ينصت للمأمور الذي انحنى لينظر داخل البئر.

ما أثار انتباه غريب بشدة هي تلك الأقنعة التي كانوا يرتدونها جميعًا.

-دكتور الصحة يا جناب المأمور.

أعلنها أبانوب فالتفت الرائد نجاتي إلى غريب وكشر عن أنيابه قائلًا للصول ضرغام الذي انتصب بجواره عملاقًا كالحوت:

-تقصد «حلاق» الصحة، وهو مفيش حد غيره؟! دكتور بجد أو تمرجي مُعتمد؟

تلعثم ضرغام وخرج صوته مكتومًا أسفل شاربه الكث.

-أسطى غريب جنابك هو الوحيد اللي بيقبل يجي هنا.

-مش بمزاجي والله جنابك.

قالها غريب وكله أمل أن يصرفوه ويأتوا بغيره.

-معندناش خيارات، تعالى يا غريب.

قالها العميد نظمي المأمور - الذي كان غريب يرتعد من مجرد ذكر اسمه - وهو يشير إليه كي يدخل الغرفة المربعة، نظمي كان متوسط الطول عريض البنية ذا وجه مربع قوي، احتكاك غريب بمأمور السجن كان قليلًا بطبيعة الحال، مرةً كل شهر كي يقص له شعره أو حين كان يمر في أحيان قليلة ليرى ما يفعله غريب بمصاب أو جريح، قلما كان يتبادل معه الحوار لكن غريب كان يشعر أنه قادر أن ينفث من أنفه نيرانًا كالتنين لو رأى ما لا يرضيه.

دخل غريب بحذر وانزوى في ركن متوجسًا من الرائد نجاتي الذي فقد الاهتمام به سريعًا والتفت لينظر في البئر، التفت أبانوب لغريب وأومأ له برأسه كي يطمئنه لكن الأخير كان على وشك أن يفرغ الغداء الهزيل الذي أكله قبلها بساعات من هول الرائحة، فما كان

من العميد نظمي إلا أن أخرج قناعًا طبيًا من جيبه ومد يده به إلى غريب بدون تعليق، كتم غريب أنفاسه وأسرع إليه ليلتقطه ثم ارتداه بإحكام قبل أن يُغشى عليه ثم تراجع ليقف بجوار أبانوب هامسًا:

-إيه البير ده؟

انحنى أبانوب بدوره ليهمس:

-الزرقانة.

نظر غريب إليه لوهلة متعجبًا من الكلمة فانزوى به أبانوب في ركن الغرفة المربعة بعيدًا عن الجدال المحتدم بين الضباط، وهناك أخبره بما جعل جسده كله ينتصب، رغم كل ما مر به ورآه في حياته.

أخبره أن ذلك البئر، والذي يُسمى «الزرقانة»، هو منفذ التخلص من بقايا طعام المساجين، بدلًا من انتظار عربة المخلفات التي كانت تعاني لتأتي يوميًا لوعورة الطريق وبُعد السجن عن الطريق الممهد، فكرة طرأت على ذهن العميد نظمي منذ أعوام، منذ أن كان لا يزال برتبة مقدم، ولاقت استحسانًا من مرؤوسيه خصوصًا وأن وقت الثورة كانت إدارة السجون محفوفةً بالمخاطر والصعاب، وقد استطاع إقناعهم بالموافقة بعد أن قدم لهم دراسةً يوضح فيها التوفير الذي سوف تحققه هذه الفكرة سواء في التكاليف المادية أو في المجهود.

سأله غريب عن عمق هذا البئر وماذا يفعلون حين يمتلئ، فأجابه أنه لا يمتلئ، صدمته إجابة أبانوب الذي لم يمهله فرصة للتساؤل، وشرح له.

سجن سيناء «13» به ثلاثة عنابر، على الأقل على الورق، وهم كما ذكر غريب آنفًا: «أ» و«ب» و«ج»، لكن ما لا يعرفه أحد - سوى في السجلات القديمة - أن هناك عنبرًا رابعًا تحت الأرض، دهاليز وزنازين قديمة قِدم السجن نفسه، أي ما يزيد عن القرن من الزمان، بل إنه من الممكن أن يكون أول عنبر به، حدثت بعدها تجديدات وتطويرات عديدة خلال القرن الماضي وكانت السبب في ازدياد حجم السجن وإضافة عنابر جديدة تم نقل المساجين إليها، أما العنبر الأول الكامن في باطن الأرض، والذي تم تسميته بـ«د»، فقد تم إغلاقه بالكامل، الحل الأسهل والأقل تكلفةً، قاموا بسد السلم وبرشمة البوابة الحديدة المؤدية إليه وقطع الكهرباء عنه، وبعد أعوام طويلة طواه النسيان.

-مش فاهم برضه، إزاي بواقي الأكل مش بتسد البير؟ إيه بير سحري؟

هكذا استنكر غريب ففسر له أبانوب بما جعل شعر جسده كله يقف:

-بياكلوه.

نظر غريب إليه جاحظ العينين وتلعثم هامسًا:

-هم... هم مين؟ فيران؟

-كنا فاكرين كده في الأول، خصوصًا إن الأصوات اللي كنا بنسمعها كانت بتقول كده، «زقزقة» وصريخ رفيع وحاجات من اللي بيطلعها الفيران.

-في الأول؟ أومال طلع إيه؟

نظر أبانوب حوله قبل أن ينحني عليه ليهمس وهو يرمق الرائد نجاتي الذي كان يراقبهما بطرف عينيه.

-مساجين عنبر «د».

***

-إنت عايز تقولي إن فيه مساجين تحت؟!

هكذا همس غريب للعسكري أبانوب وعيناه الجاحظتان ملتصقتان بسور البئر الذي يحيط به الضباط في منتصف الغرفة، أخفض أبانوب صوته أكثر كأنه يخشى أن يسمعه أحد، رغم أن الجدال المحتدم عند البئر كان على أشده ليكمل تفاصيل القصة الرهيبة.

-محدش كان يعرف يا غريب، السجلات اللي كانت في فترة تجديد السجن مكانتش دقيقة، ونظمي باشا كل اللي كان يهمه إن الأكل اللي بيترمي بيخلص، فيران بقى ولا جن أزرق، مش مهم.

التفت غريب للبئر وانهالت على ذهنه أسئلة لا حصر لها.

-وبقالهم فوق الميت سنة تحت؟ مستحيل يا أبانوب، أكيد غلطانين.

-معرفش يا غريب، بيقولوا العميد نظمي بس اللي شافهم، أيًا كان مين اللي تحت، المهم إنهم بطلوا ياكلوا والمشكلة دي لازمن تنحل.

-العميد نظمي بس؟ تمام.

قالها غريب ساخرًا من عبثية الافتراض وسذاجة الإشاعة، رمق العميد نظمي بنظرة جانبية ورغمًا عنه تحولت ملامح الأخير لتصير

شيطانيةً، صار شاربه الأسود الذي يشبه عتة عملاقة أكثر ضخامةً وازدادت عينيه عمقًا واتساعًا حتى تخيل أنهما قد صارتا كحيلتين مثل عينيّ أبو لهب.

-يلا، اجهزوا للنزول، وبما أننا معندناش العدد الكافي، فهيضطر الرائد نجاتي لقيادة المجموعة وضرغام هيساعده مع خمس عساكر، وطبعًا التمرجي غريب.

قالها نظمي ليهرب الدم من وجه غريب والتفت لأبانوب قائلًا:

-ننزل؟ ننزل فين؟

لم يكن حال العسكري الأسيوطي بأفضل من غريب بكثير، وتبادل معه نظرةً ملتاعةً، لكن نجاتي هو من تطوع ليجيب:

-هيكون فين يعني؟ عنبر «د» طبعًا، بقايا الأكل ابتدت تتكدس والأغبيا اللي في المطبخ مخدوش بالهم لغاية ما الأكل وصل لفتحة البير.

-اللي عايشين تحت بطلوا ياكلوا اللي بنرميه لهم، ومنعرفش من امتى وليه.

هكذا أضاف العميد نظمي ليسد غريب أنفه بإصبعه من فوق القناع الطبي ويمد عنقه لينظر فى البئر، وهناك وجد قمة تل من بقايا الطعام أسفل الفتحة بأمتار قليلة، رمقه العميد نظمي بنظرة خاطفة جمدت الدماء في عروقه قبل أن يستدير ليتجه إلى مدخل الغرفة، في طريقه أعطى أوامره لنجاتي همسًا والتي لم يبدُ لغريب أنها راقت للأخير، لكن نجاتي لم يجرؤ على الاعتراض، فالكل مشترك في

هذه المشكلة ولو تفاقمت وفاحت رائحتها لضاع مستقبلهم المهني.

أحكم نجاتي الواقي من الرصاص على صدره وقناعه الطبي على وجهه ثم تأكد من سلاحه في جانبه وهو يقول:

-هاتوا السلم.

***

ذاهلًا، راقب غريب الاستعدادات، إن الأمر سيحدث بالفعل، سوف ينزل لبئر الجحيم هذا، أخذ يتابع تجهيز المؤن والمعدات والأسلحة ومراجعة إجراءات الأمن التي لم تنجح سوى في بث المزيد من الرعب في قلبه، بأنفاس مبهورة راقب جنديًا يحمل سلمًا مرنًا وينزله من فتحة البئر بعد أن ربط طرفه في قضبان البوابة الحديدية.

بصعوبة منع غريب لعابه أن يسيل ذهولًا وهو يتابع نجاتي الذي تقدمهم لينزل السلم المتدلي في البئر، ثوانٍ قليلة وكان نجاتي يضع قدمه فوق قمة تل الطعام المكدس في البئر، يزن خطوته القادمة، لكن يبدو أنه وجد التل غير متماسك فقرر النزول أعمق كي يستقر على قاعدته.

لم تكن إضاءة الكشاف الذي أمسك به العسكري أبانوب كافيةً ولا نور هاتف ضرغام المحمول أو المصباحان البائسان المعلقان على جدران الغرفة المربعة، وللحق يُقال أن شجاعة نجاتي كانت مثارًا للإعجاب، فقد أمسك بالسلم بقبضة حديدية وجال بكشافه الملتصق بسلاحه في البئر المظلم غير عابئ بهول المشهد ولا كمية القاذورات المحيطة به، يتساءل غريب وهو يتابع المشهد مبهور الأنفاس: ألا

يخشى النزول في دهاليز لا يدخلها النور ويعيش فيها بشر لم يروا النور لمائة عام؟

بحلق غريب في البئر غير قادر على التفكير.. هل هناك بشر بالأسفل بالفعل؟ ولو كانت الإشاعة حقيقية، هل لا يزالون بشرًا؟ وكيف نسيتهم إدارة السجون؟

ما أن استقر نجاتي في القاع حتى دار بنور كشافه حوله ليستكشف محيطه، البئر دائري، قطره لا يزيد عن الأمتار الخمسة لكنه كان يحتوي على تل هائل من بقايا الطعام العفنة، كان هناك أربعة ممرات ضيقة كاللحود تتفرع من القاع بالإضافة إلى خامس عريض، انعكس ضوء الكشاف الذي يحمله نجاتي على قضبان معدنية تسد الممرات الأربعة عكس الخامس الذي كان وكأنه هو الرئيسي والباقي أفرع، همس أبانوب لغريب قائلًا:

-بيقولوا إن المساجين كانوا بيظهروا في الممرات الأربعة دي وبيمدوا أيديهم من ورا القبضان علشان ياخدوا الأكل.

أراد غريب أن يقول له أنه لو أقسم على الماء ليتجمد أمامه لن يصدق قصة المساجين تلك، لكنه آثر السكوت، فئران، عدد مرعب منها، حتمًا التفسير كذلك، حدق أبانوب في عينيّ غريب ليقرأ التكذيب فيهما فأضاف:

-حتى لو حكاية المساجين دي إشاعة، فيه حاجة حصلت تحت خلت الأكل يتكوم.

-يلا، انزل يا ضرغام.

ابتلع الحوت البشري ريقه لكنه لم يتردد لحظةً في تنفيذ أوامر العميد نظمي الذي كان يتابع العملية من عند مدخل الغرفة، أسرع بإحكام القناع الطبي على وجهه ثم بالنزول خلف نجاتي، بعده كان دور أبانوب وبقية العساكر ثم جاء دور غريب.

ما أن استقرت قدميّ الأخير على طرف تل الطعام المتعفن حتى التفت ليحدق في الفتحات السوداء التي اخترقتها أشعة المصابيح بالأسفل والتي تقود للممرات، لكزه أبانوب برفق ومد يده له بقناع طبي آخر ليرتديه فوق هذا الذي على وجهه، فالرائحة هنا أسوأ بمراحل مما كانت بالأعلى، التقطه غريب منه بلهفة وارتداه قبل أن يختنق من بشاعة الرائحة، هذه ليست نتانة الطعام الفاسد فقط، بل امتزجت مع صنان جهنمي لم يتحف أنف غريب مثله من قبل، رفع عينيه لينظر عبر إحدى الفتحتين الصغيرتين في السقف، كأنه يودع السماء والدنيا بالخارج.

دقائق قليلة وكانوا يقفون بجوار تل الطعام المكدس في قلب البئر: نجاتي وضرغام وأبانوب وخمسة آخرون من الجنود شديدو البأس،كتيبة صغيرة مزودة بأسلحة نارية وأخرى بيضاء، يتذيلهم حلاق صحة هزيل، كل ما أمكنهم جلبه للطوارئ الطبية المحتملة.

كان جليًا أن الخوف هو العنصر العاشر في المجموعة، رغم البأس المصطنع والحنق الذي يبالغ فيه الرائد نجاتي، كيف صار حال من بقي في ظلام وقهر وعزلة لأعوام؟ سؤال تجاهلوه كثيرًا حتى نسيوه، والآن يجب أن يواجهوا أقوى مخاوفهم: أن ينزلوا إليهم، وقفوا على المحيط الخارجي للتل مخروطي الشكل، عند قاعدته،

حيث الطعام الذي كان يُلقى ويتدحرج.

مستعينًا بكشافات ومصابيح الجنود، نظر غريب إلى الممرات المظلمة التي تتفرع إلى الاتجاهات الأربعة، تلتقي كلها عند قاع البئر وتنتهي بقضبان غليظة تفصلها عنه، همس أبانوب - والذي أصبح المرشد السياحي الخاص بغريب - أن السجناء كانوا يأتون من تلك الممرات في نفس الميعاد كل ليلة، حين يتم التخلص من الطعام بإلقائه في البئر ويختطفونه من بين القضبان كالحيوانات البرية، كانوا يسمعون أصواتهم، على الأقل من كان يعلم بوجود هذا البئر من الجنود والضباط.

رغمًا عنه، لقوة التفاصيل الكابوسية للمكان والمهمة بأكملها، تشكلت صور قاتمة في ذهن غريب جعلت قلبه ينقبض، عشرات المختلين عقليًا، مجرمون شديدو الخطورة، يعيشون مثل الحيوانات، منسيون من الدنيا، يقتاتون على فضلات طعام المساجين التي لا تُؤكل وهي طازجة، يحتشدون في نهايات الممرات، يمدون أيديهم ليتخطفوا الخبز العفن وحبات الأرز المبتلة، يتقاتلون على العظام التي أُنتزِع من عليها اللحم والدهن، كيف صمدوا كل هذه السنين؟ هل كانوا يتناسلون فيما بينهم؟

نفض الأفكار السوداوية القبيحة من ذهنه وسأل أبانوب بنبرة مرتعشة هامسًا:

-هو محدش فيكم كان بينزل هنا؟ على الأقل يتأكد من اللي بيحصل؟ محدش حتى يعرف هنمشي إزاي؟

شرح له أبانوب:

-كل ممر من الأربعة دول بيوصل لقسم معزول كان فيه عدد محدد من المساجين ويتفرع لدهاليز تانية، الأقسام الأربعة بيتقابلوا في نقطتين: البير اللي نزلنا منه وصالة الأنشطة في الطرف البعيد من العنبر، في نهاية الممر الرئيسي اللي ماشيين فيه دلوقتي...

-امنع الكلام.

هكذا همس الرائد نجاتي من خلف قناعه الطبي بصوت أقرب للفحيح قبل أن يطرق منصتًا، فعل الجميع مثله وأرهفوا السمع لعلهم يلتقطون ما يرشدهم إلى مكان... أيًا من كان يسكن ذلك القبر المهول، مرت الثواني بطيئة وكل ما يتناهى إلى مسامعهم هو صرير فأر بعيد وطنين الحشرات التي تملأ الممرات وتغطي كومة الطعام.

بإيماءة من رأسه إلى الممر الرئيسي، تقدم الرائد نجاتي مسددًا سلاحه وضوء كشافه أمامه، أطاعه الجميع وساروا في ترتيب مدروس، بحيث يكون نجاتي في المقدمة وضرغام في المؤخرة وأبانوب في المنتصف، أمام غريب. اتقاءًا للسواد المقزز الذي يغطي الجدران، حاول الأخير البقاء في منتصف المسافة بين الحوائط وهم يخرجون من قاع البئر إلى الممر الرئيسي، لم ينجح القناع الطبي في منع الرائحة البشعة من التسلل إلى أنفه بالقدر الذي تمناه، لكنه أفضل من لا شيء.

كان غريب في قمة تأهبه، يجفل لأقل حركة قبل أن يسلط أحدهم نور كشافه على فأر يجري فوق أحد المواسير أو يدخل في فتحة ما أو يعبر الممر من ورائهم، حتى الحشرات التي لم يرَ غريب أنواعها من قبل، كانت متوحشة شرهة للدماء، وهذا من وفرة القاذورات في

تلك الدهاليز الخانقة التي لا تزيد عن المترين ارتفاعًا، لكن الرائحة كانت هي عدوه الأول، وقد ساعد الهواء الراكد والمياه الآسنة التي تملأ الممرات على تفاقمها.

صرير الفأر تكرر من بعيد، أعلى من الطبيعي، كأنه يصرخ أو يتصارع مع شيء ما، قبل أن يئن ويصمت للأبد، لم يثنهم هذا عن المضي، وبما أن نجاتي من المؤمنين بقصة المساجين، كان كلما مروا بقضبان من تلك التي تفصل الممر الرئيسي حيث يسيرون وأحد الأقسام الأربعة يسدد نور الكشاف عبرها علّه يلمح أحدهم. لكن... لا شيء، ظلام دامس أكثر سوادًا في نظر غريب من باطن جفنيه لو أغلق عينيه بقوة، فما كان منه سوى أن غمغم:

-مستحيل، إزاي يعيش بني آدمين هنا؟ ده شيء بشع...

ثم توقف حين تسمر قائد مسيرتهم بغتةً، ظن أن نجاتي سوف يوبخه لقطعه الصمت لكنه لاحظ أنه يسدد نور كشافه على قضبان كانت تسد فتحةً على شكل قوس... قضبان مكسورة.

اندفع الأدرينالين بقوة في عروق غريب بعد أن رأى أن الحاجز الذي كان يحميهم من أهوال عنبر «د» صار به ثغرة، بحذر تقدم نجاتي ليتحسس نهايات القضبان قبل أن يشير لغريب أن يذهب إليه، أشار إلى طرف مدبب تغطيه طبقة دكناء وهمس له مستفسرًا عن كنهها.

تقدم غريب ووضع حقيبته على كرسي خشبي مكسور يستند على حائط الممر الرئيسي، التفت بعدها متوجسًا من السواد الحالك الذي يطل عليه من خلف الزنزانة، ثم عبر بجوار نجاتي ليمسك بطرف

القضيب ويتحسس تلك الطبقة التي تغطيه، فركها بأطراف أصابعه قبل أن يضطر لخفض قناعه كي يشمها.

-ده دم؟

هكذا همس نجاتي سائلًا لكن غريب لم يهتم بالطبقة الجافة نفسها، بل بتلك الشظايا البيضاء التي اخترقت طرف القضيب الصدئ المكسور، والتي كانت اكتشافًا أشد هولًا، فما كان منه سوى أن يجيب نجاتي، بصوت مرتعش:

-مش مهم الدم، دي... أسنان، فيه حد كسر القضبان بأسنانه... أسنان بني آدم.

نزل الخبر على الجنود كالصاعقة لينعكس الذعر جليًا على وجوههم ويتضاعف تحت تأثير ضوء المصابيح الضعيف، ولكن أكثرهم تأثرًا كان غريب نفسه بعد أن تحول الكابوس إلى حقيقة، هناك بالفعل أناس هنا، ولا يمكنه البدء في تصور المعاناة التي جعلت الأمر يصل بهم لقضم القضبان بأسنانهم حتى تنكسر.

سؤال مخيف مؤلم، لكن الأهم منه هو... ما الذي صار إليه حالهم؟

هنا قال ضرغام بصوت مرتعش لكنه مسموع:

-جنابك لازم نطلب تعزيزات، اللي يعمل بسنانه كده في الحديد، هيعمل فينا إيه؟

نظر إليه نجاتي شزرًا وقد زادت الأنوار المرتعشة في أيدي الجنود من سواد ملامحه والغضب المتجلي عليها، لكن قبل أن ينهره كي يخفض صوته صدى صوتٌ آخر، صوت لم يتخيلوا ولو في أكثر

أحلامهم غرابةً أن يسمعوه هنا.

رنين هاتف.

***

هنا كان لا بد أن أوقف زينة.

-إيه التخاريف دي؟ إنتي مصدقة الكلام ده؟

فما كان منها سوى أن رفعت هاتفها المحمول لتريني خبرًا على متصفح البحث.

-كنت عارفة إنك هتقول كدة، بص شوف، خبر من «2014» بيقول إن سجن العريش «13» اتقفل للتجديدات، نفس توقيت القصة، ومن ساعتها مشتغلش تاني، أكيد حاجة حصلت، سيبني أكمل وركز علشان هتفهم، السر في التفاصيل يا توحة.

زفرت في نفاذ صبر حين سمعت الجملة المكررة.

-اتفضلي يا ستي.

***

تحول جميع أفراد الفرقة الصغيرة إلى تماثيل متحجرة حين صدى رنين الهاتف، سرت رعدة شديدة القوة في أجسادهم، حتى الرائد نجاتي، لاحظ غريب رعشة الكشاف في يده وبياض وجهه، لكن الأخير تدارك نفسه بسرعة وقال:

-فيه إيه؟ ده صوت تليفون، اجمدوا كده!

-وشغال لغاية دلوقتي؟ ميت سنة من غير صيانة ولا متابعة؟

-وم... مين اللي بيتصل؟

هكذا تساءل الجنود لينهرهم نجاتي مزمجرًا:

-تفاصيل مش مهمة، تليفون بيرن وخلاص!

تفسير لا يُسمن ولا يُغني من الجوع، مجرد سماع هذا الرنين في مكان كهذا، يجمد الدم في العروق، لكن ضرغام لم يجادله بل رمق أبانوب بنظرة خاطفة فهم منها غريب أن كبرياء ذلك الضابط ستودي بهم إلى التهلكة، فهو لن يسمح أن يظهر أمام مأمور السجن بمظهر الجبان.

الرنين جاء من نهاية الممر الرئيسي الذي يسيرون فيه، وهو - كما فهم غريب من أبانوب - ينتهي بصالة الأنشطة المجمعة وتمركز ضباط وحراس السجن... إلى حيث يتجهون.

مسترشدين بأنوار مصابيح الزيت التي يحملونها والكشافات، سارت المجموعة في صمت تام، التزموا بمنتصف الممر بالضبط، حذرين متنبهين لأقصى حد، ظلوا محافظين على مسافة آمنة من الجدران والفتحات التي تشبه مجرى العيون في مصر القديمة، و«آمنة» هي مجرد «أمنية» بالطبع، فقد قضم السجناء معظم قضبانها والكل يدرك أن في أية لحظة سيتجسد أمامهم خطر لم يره بشر من قبل من إحدى تلك الفتحات.

ثم توقف أبانوب وسلط ضوء كشافه على إحدى الفتحات، والتي كانت زنزانة ضيقة مظلمة.

-مالك يا بني؟

هكذا سأله ضرغام فما كان منه سوى أن يشير بمصباحه بيد مرتعشة ويتمتم:

-ن... نجاتي باشا، الزنزانة دي فيها حد.

تسمر الجمع مرةً أخرى وسلطوا أنوار الكشافات على محتوى الزنزانة المنخفضة عن مستوى الممر، كأنها قبر، مساحة مربعة صغيرة لا تتعدى المترين طولًا بها ركام خشبي لكرسي مكسور، أو هكذا استنتج غريب، وهناك وعاء معدني أسود من شدة قذارته و... فراش يستلقي عليه جسد تحت غطاء خشن مهترئ.

هربت الكلمات منهم جميعًا، حتى الرائد نجاتي، تلعثم في حروف بلا ترتيب ولا معنى قبل أن يستسلم ويصمت، ظل الوضع هكذا وهم يتأملون بعيون جاحظة ذلك الراقد الساكن أمامهم دون أدنى دليل على أنه حي يُرزق أم صار جثةً متحللةً، لكن غريب يعرف، فلو كان ميتًا لوشت به الرائحة وانتفاخ جسده، ولذلك فقد كان أول من نطق.

-ده فيه مساجين هنا فعلًا، إزاي؟ مستحيل.

هكذا غمغم غريب دون أن يعترض نجاتي هذه المرة، فهو محق تمامًا، ما يراه أمامه هنا هو أشد وحشيةً وقسوةً من أي عقاب، كيف أقنع نفسه أن يغض البصر عن قصة كهذه؟ كيف وجد لنفسه عذرًا ألا يتقصى حقيقة ما يحدث للطعام؟ كيف أطاع نظمي في السكوت على جرم كهذا؟

-يا مسجون، «فِزّ» أقف.

هكذا نادى نجاتي في محاولة بائسة كي يستعيد صرامته، أشار لأحد الجنود كي ينزل درجتيّ السلم ويقترب من القضبان.

-شوفه نايم ولا صاحي.

لكن ذلك الذي كان يرقد على جنبه أسفل الغطاء الصوفي القذر مواجهًا الحائط لم يتحرك، تساءل الجندي الذي نزل ليصبح في مستوى الزنزانة إن كان حيًا من أساسه ليجيبه غريب:

-صدره بيتحرك، بيتنفس.

-يا مسجون! اسمع كلام سعادة الضابط!

هكذا زمجر ضرغام متقمصًا دوره بإتقان قبل أن ينتبه للرائد نجاتي الذي أشار للجندي الذي بلغ القضبان أن يرفع بندقيته ويدخلها بين القضبان ليلكز النائم.

لحظة طويلة مثيرة للأعصاب مرت، ورغم أن القضبان كانت سليمة هنا لكن الكل كان متحفزًا ممسكًا بسلاحه.

لم يتحرك النائم، لم يبدِ أنه شعر بدفعة الجندي من أساسه، مما جعله يكررها لكن بقوة أكثر، أدخل ذراعه لمسافة أطول ولكزه بطرف بندقيته بعنف.

وللمرة الثانية لم يتحرك، بل وتوقفت حركة صدره كأنه قد كفّ عن التنفس، لحظات أخرى مرت وهم يحدقون في الجسد الراقد دون حراك، لحظات ضغطت على أعصابهم حتى كادت أن تنفلت حين

تناهى إلى مسامعهم صوت الرنين مرةً أخرى.

أقرب من المرة السابقة.

تبادلوا نظراتٍ حائرةً جَزِعةً، هل اقتربوا من التليفون أم اقترب هو منهم؟

اقترب ضرغام من قائد المسيرة وتبادلا حوارًا هامسًا راقبه الجنود متوجسين، مما سمعه استطاع غريب أن يفهم أن ضرغام يريد أن يعود ليخبر العميد بما وجدوا وهذا لأن نظمي قد أعطاهم مهلة محددة قبل أن... ثم انتبه فجأةً للنائم الذي...

ما هذا؟ أين ذهب؟

كالمسلوع دار غريب حول نفسه باحثًا عن ذلك الذي كان نائمًا قبلها بهوانٍ.

-فيه إيه؟

سأله أبانوب لكنه لم يكن في حاجة لسماع إجابة غريب، فالموقف كان جليًا، لقد اختفى السجين النائم، قفز نجاتي درجة السلم نزولًا وأمسك بالقضبان وعينيه الجاحظة تكاد تخترق الفراش الخالي من السجين وغطائه، ثم التفت ليمسك بتلابيت الجندي الذي كان واقفًا عند الزنزانة.

-راح فين؟ انطق، راح فين؟!

هكذا صاح في وجه الجندي الذي انعقد لسانه بينما اقترب أحد الجنود من الزنزانة وهو يشير لنهايتها المقابلة للقضبان حيث يقفون،

ويقول:

-الباب مفتوح.

سددوا أنوار الكشافات على باب الزنزانة ليجدوا ما قاله صحيحًا وبنفس التوقيت استداروا للجهة التي جاؤوا منها، وبالتحديد للزنزانة التي كانت قضبانها مكسورة، وتذكروا أخطر نقطة: لم يعد هناك حاجز بينهم وبين السجناء، وفي أية لحظة سيدور من كان نائمًا حول الزنزانة ليخرج لهم من بين القضبان المكسورة.

دارت في أذهانهم تخيلاتٌ لما آل إليه حال السجناء بعد سنين من العزلة والظلام والحياة غير الآدمية، لا يمكن لبشر أن يمروا بهذه الظروف ويظلوا بشرًا، هكذا كان يفكر غريب قبل أن يصيح نجاتي:

-يلا! احنا بنضيع الوقت هنا.

قبل أن يتحرك غريب ليلحق بالركب انتبه للجندي الذي كان يقف أسفل درجة السلم، عند الزنزانة مباشرةً، ذلك الذي أدخل بندقيته ليلكز النائم، والذي بدا عليه أنه علق في شيء ما، حاول أن يحرر بذلته العسكرية من طرف مدبب بأحد القضبان لكن كم قميصه علق في شيء آخر.

-اتحرك يا بني آدم.

هكذا زمجر الرائد نجاتي فمد جندي آخر يده ليساعد ذلك الذي علق لكنه لم يتمكن، بل علق هو الآخر، حاول التملص لكن ساق بنطاله اشتبكت في شيء حاد أسفل القضبان، هنا تدخل جندي ثالث بعد أن بدأ نجاتي يفقد صبره من سخف ما يحدث، لكن مصيره كان

مشابهًا، هنا صاح نجاتي وهو يقترب منهم:

-بتعملوا إيه؟!

-خليك بعيد چنابك! هتتمسك أنت كمان چنابك.

هكذا صاح أبانوب ليجعل نجاتي يتوقف قبل أن ينزل الدرجة ويتراجع قائلًا:

-إيه اللي بيحصل؟ روح شوف فيه إيه.

هكذا هتف بضرغام الذي أطاعه بأقدام مرتعشة، خصوصًا بعد تحذير أبانوب، حاول أن ينتزع الجنود الثلاثة من تلك الأشياء غير المرئية التي علقوا بها، فليست هناك مسامير ظاهرة ولا أطراف مدببة، فقط القضبان نفسها، كأن لها أيدي خفية تمسك بملابس الجنود.

همس أبانوب لضرغام أن يأخذ حذره فتراجع تاركًا الجنود الثلاثة في معضلتهم الشائكة.

-بتعملوا إيه؟ خلصوهم من اللي شبكوا فيه حالًا!

تشابكت أيادي وأرجل الجنود الثلاثة وتعقدت ملابسهم وساعد ذعرهم من مضاعفة الارتباك، وبعد أن يأسوا من الفكاك خمدت حركتهم والتصقت أعينهم الجاحظة بالزنزانة الخاوية التي أصبحوا جزءًا منها، ثم خرجت منهم كلمات عشوائية تحولت إلى توسلات، ومع نفاد صبر نجاتي وقلة حيلة ضرغام هبّ غريب كي يمد يد العون للجنود المذعورين دون أن يفهم حقيقة ما يحدث لهم، لكن أبانوب أمسك بكل قوة بذراعه... في نفس اللحظة التي صدى فيها

رنين الهاتف مرةً أخرى... أقرب بكثير.

سدد نجاتي نور كشافه إلى يساره، إلى نهاية الممر الذي كانوا يقفون فيه، لكن الضوء لم يمتد سوى لأمتار قليلة قبل أن يهزمه الظلام.

-ده بيقرب... أكيد بيقرب.

هكذا همس الرائد نجاتي قبل أن يطفئ ضوء كشافه، أشار إليهم أن ينزلوا درجة السلم التي تؤدي للزنزانة التي علقوا بقضبانها والتى كان يرقد بها السجين، وما أن استتروا بالجدار واختبأوا أسفل القوس في ذلك الحيز الضيق، حتى سكنت حركتهم وانتبهت حواسهم لما هو قادم في العبر، تأكد نجاتي أن الجميع قد استلوا أسلحتهم وأشار للجنود العالقين بالقضبان كي يسكنوا ويبتلعوا ألسنتهم قبل أن يشير لأبانوب كي يطفئ شعلة مصباح الزيت الذي يحمله.

وحلّ الظلام.

لم تكن ظلمةً عاديةً تلك التي وجدوا أنفسهم فيها، بل شيئًا أكثر سوادًا من باطن الكفن، لولا من ضوء شديد الخفوت يأتي من المصابيح المعلقة أعلى البئر البعيد ويشع عبر الممر من حيث أتوا.

وبعد الظلام جاء الصمت.

سكون مقبض يتخلله فقط صوت أنفاس الجنود الثلاثة المتشابكين مع بعضهم ومع الزنزانة، حتى الهمس لم يجرؤ عليه أحد، ولولا أن غريب كان يعرف أن الرائد نجاتي قد انتقى أشجع

جنوده لأجزم أنه كان يسمعهم ينتحبون.

حتى غمغم نجاتي هامسًا من بين أسنانه:

-لو سمعت صوت حد هيتجلد مية جلدة، اخرسوا.

بعدها جاء سكون مطلق.

أنصتوا جميعًا، يتحسسون لأي حركة، ينتبهون لأقل صوت، السكون والظلام الحالك أشد من أن تتحملهما أعصابهم، فباتت أوصالهم ترتعد.

ثم صدى رنين الهاتف المعدني، أقرب بكثير، فقط أمتار.

صريخ فأر هائل الحجم سمعوه من بعيد جعل الدم يتجمد في عروقهم.

أنفاس الجنود المتكدسين في مساحة مربعة لا تتعدى الأمتار الثلاثة عالية وعضلاتهم متحفزة، لو صرخ الفأر مرةً أخرى لقفزوا هاربين.

تررن.

ترررن.

مترين.

علقت عينيّ غريب على الممر أعلى الدرجتين، وسمع صوت شيء يتحرك هناك، شيء قادم... شيء يحمل الهاتف.

ترن.

متر.

صوت شيء ينكسر ورائه، وصوت أنين مكتوم.

التفت ليرى الجنود الثلاثة وقد صاروا في الظلام جسدًا واحدًا متلاحمًا يحاول الفكاك بحركات عشوائية محمومة.

-ششش، وطوا صوتكم.

زمجر نجاتي هامسًا.

ترن.

التفتوا للممر، سيظهر من يحمل الهاتف.

صوت تكسير العظام خلفهم جعل غريب يلتفت للجنود الثلاثة ليجدهم ينضغطون بوحشية معًا وينسحقون على القضبان، سينبهون حامل الهاتف بأنينهم، حاول تحريرهم لكن أبانوب أمسك بذراعه كي يثبت مكانه، ففعل، وأدار رأسه للممر أعلى درجتي السلم.

يا للهول.

ما هذا الذي يراه.

هذا الذي يمشي في الممر، حاملًا الهاتف، بيديه، إنه... لا، ليس يدين اثنين، بل... ثلاث، هيئته - كما يراها غريب بصعوبة - آدمية، وفي نفس الوقت ليست كذلك، نصفه العلوي ضخم، هائل، تخرج منه أيادٍ كثيرة، أشكال وأحجام متباينة من الأذرع بأطوال مختلفة، منها من يبدأ أسفل البطن عند كوعه ومنها ما هو مجرد كف يتلوى من جانبه.

ثم يرى الهاتف، تحمله ذراع وكفان، السلك ممتد خلفه، يحمله أمام

صدره في تبجيل، في حرص، كأنه أغلى شيء في الوجود.

وهذا ليس كل ما الأمر، فإن نصفه السفلي ليس بأفضل حال، سيقان مختلفة الأطوال والأشكال، كأن هناك العشرات من البشر قد التحموا لينتجوا هذا الكيان الجهنمي.

كيان صامت، رغم الرؤوس التي تنبت من كتفيه لتتدلى على ظهره وفوق صدره، رؤوس بأفواه مفتوحة كأنها تصرخ في صمت وأخرى تلوك شيئًا لم يتمنى غريب أن يعرفه، رؤوس سوداء متسخة وملامح تنضح بالألم والجنون.

-هو إيه ده؟ شيطان؟

همس ضرغام، ليجيبه أبانوب بعيون ذاهلة:

-السواد... الضلمة... الظلم... بقوا كيان واحد... بيتحرك.

ثم جاءت الصرخة.

لكنها لم تأتِ من الكائن الكابوسي الذي يزحف ببطء مخيف في الممر أمامهم، بل من خلفه، وحين سمع صوت عظمة تنشطر علم مصدرها: أحد الجنود الثلاثة المتشابكين خلفه.

هنا توقف الكائن، بعد أن كاد أن يتخطاهم.

وفي الإضاءة الضعيفة لمح غريب رؤوسه تلتفت، تنظر ناحيتهم.

هنا فقد نجاتي أعصابه وسدد سلاحه إلى حامل الهاتف، وأمرهم أن يفعلوا المثل، انصاع أبانوب للأمر وسدد بندقيته للكائن الجهنمي بينما أخفق ضرغام وأسقط سلاحه، تراجع بعدها إلى القضبان وهو

يبكي وينتحب.

-لا... ده مش حقيقي! ده مش حقيقي!

صرخ فيه نجاتي أن يتمالك نفسه قبل أن يفرغ طلقات سلاحه في المارد المظلم الذي عاد بنفس الخطوات البطيئة ليقترب منهم، فعل أبانوب نفس الشيء، لتصم آذانهم صدى صوت الطلقات، لكنه كان جليًا أن الرصاص لا يؤثر فيه، بل ساعده على تحديد مكانهم، زاد من سرعته وامتدت أذرعه التي لا تحمل الهاتف إليهم تنبش في الهواء باحثةً عنهم.

كان الأمر أكثر من طاقة غريب.

الكيان المظلم الكابوسي الذي بات أمامه وتضاعفت معه الرائحة العفنة.

صرخات الجنود وأصوات تكسير عظامهم وهم يعتصرون على القضبان خلفه.

صيحات نجاتي المجنونة وهو يفرغ سلاحه الاحتياطي في الوحش الأسطوري.

بكاء ضرغام الذي انهار أرضًا وهتافات أبانوب اليائسة له كي يساعده فى تحرير نفسه بعد أن علق هو الآخر.

كل هذا جعل غريب يغلق عينيه، يتمتم بكلمات حاول أن تكون دعاءه الأخير، ومع صرخات الألم التي سمعها والتي ميز منها صوت أبانوب وضرغام ونجاتي، لم يجد أمامه سوى أن...

يُغشى عليه.

***

توقفت زينة عن السرد وبحلقت في وجهي مستمتعةً برد فعلي، الذي كان ثابتًا على وضع واحد... الاشمئزاز والتوتر، ليس فقط بسبب بشاعة ما كنت أسمعه، بل لأن هناك خاطرًا آخر يؤرقني، وهو سبب إصرار غريب على وصول هذه القصص إليّ، والأهم من هذا هو وقع هذه القصة الشنيعة على حياتي بعدها.

-استنى... التقيل جاى.

قالتها مبتسمةً ثم أكملت...

***

«... مسسسس!!»

هكذا رنت الكلمة فى رأس غريب ليستيقظ مذعورًا، وحين استيقظ كان المكان ساكنًا كالقبر، مما جعله يتساءل: هل كانت تلك الكلمة العجيبة في ذهنه، يحلم بها، أم كانت حقيقية؟

تحسس الجدران القذرة حوله كي يستند على كفيه ويقف، لكن الأرض مادت به للحظة، انتظر حتى يستعيد توازنه وجال ببصره في الزقاق الضيق الذى كان شاهدًا على حدث أقرب للجنون، شعر بسائل دافئ عند قدمه فسحبها وتحسسه، ثم اشتمه، دماءً، وما سيكون غيرها، كل ما بقي من رفقائه، لا يدري كيف نجا، لكنه حتمًا بسبب إغمائه، فلم يشعر به الكيان البشع الذي قضى عليهم، أخرج كشافه وسلطه ناحية القضبان، تلك الدماء والأزياء العسكرية الممزقة، لا

تعني إلا شيء واحد، لقد تشبثت بهم القضبان، وكأن لها إرادة سوداء خاصة بها، وضمتهم إليها، عانقتهم بكل عنف، حتى سحقتهم في كيان واحد مشوه من العظام المطحونة واللحم المفروم.

ثم جاء الكائن الكابوسي لينهي الأمر، صورة مُقبضة مخيفة تجسدت في ذهن غريب لما كان يحدث في قاع البئر، مشهد السجناء وهو يتكدسون أمام القضبان، يتقافزون فوق بعضهم، يتخاطفون بقايا الطعام الفاسد، يسحقون أجسادهم فيما بينهم وعلى القضبان، حتى صاروا كتلةً واحدةً من آدمية منسحقة.

مصير بشع يفوق أكثر كوابيسه وحشيةً.

لكن بدلًا من الشعور بالامتنان والطمأنينة من نجاته دبّ الذعر في قلبه ثانيةً، فهذا يعني أنه قد صار وحيدًا، في مكان أشبه بحفرة في الجحيم، انتفض واقفًا وتحامل على الدوار الذي أصابه وصعد درجة السلم ليخرج للممر الرئيسي، عدم وجود جثث رفقائه لا تعني إلا شيء من اثنين: إما أن يكون الكائن الجهنمي قد التهمهم، أو أنهم قد انضموا للأجساد الفانية التي يتكون منها، وهو الاستنتاج الأقرب لقلبه.

بحث عن الكشاف، يدرك أن الوحش لا يرى، بل يسمع ويشعر بالحركة، ولهذا فهو فى أمان لو أضاء النور، يجب أن يكون خفيفًا، هادئًا، حذرًا، نظر يمينًا، إلى جهة الممر المفترض أنها تنتهي بصالة الأنشطة، هناك شعر بحركة في السواد الدامس الذي امتص ضوء كشافه، ثم سلطه إلى يساره، إلى الجهة التي أتوا منها ليقع نوره على شيء هائل الحجم يقف أمام كومة الطعام، حتمًا هو الكيان الجهنمي

الذي يتكون من أجساد المساجين، يقف هناك، يسد عليه طريق الرجوع، جبل من الأجساد الملتحمة، أذرعه العديدة تتحرك بإيماءات لا يفهمها غريب.

جفل وكاد أن يشهق حين لمح ذلك الوجه، يخرج من ظهر الكائن، ملامح سمراء لوجه طويل يعرفه جيدًا، رغم أنه منسحق تمامًا، رغم صرخة الألم والذعر المتجمدة عليه: أبانوب، تتحرك عينيه السليمة الجاحظة، لتنظر إليه، عينيه التي تختلف عن بقية الوجوه الملتحمة قبله والتي كانت أعينها كلها بيضاء تمامًا من العمى، يزداد بؤبؤه اتساعًا، يخبره أنه يختبر عذابًا لم يشهده بشر من قبل، يحذره كي يهرب.

«... مسسسسس!!»

وكأن الموقف كان ينقصه المزيد من الذعر، تصدى هذه الكلمة من الطرف الآخر من الممر، عكس اتجاه المسخ، هسيس يأتي من بعيد يُشعر غريب أنه يأتي من... أشخاص.

هنا شعر به المارد الشنيع، شعر بذعره وارتعاد أوصاله، فاستدار إليه، ذراع ضرغام كثيفة الشعر تتدلى من إبطه، أسفل ذراع آخر، شعر رأس الرائد نجاتي الأسود الزيتي يظهر في جانبه الأيسر، بجانب ذلك الوجه مطموس الملامح منسحق التفاصيل، لقد ضمهم إليه، نجاتي وضرغام وأبانوب، وبقية الجنود، ضمهم إلى عذاب لا ينتهي ومصير أسوأ من الموت.

تراجع غريب خطوة أخرى فيكمل الكائن استدارته ويواجهه بعد أن شعر بحركته، الهاتف واضح أمام صدره تحمله كفوف وأيادي من

سبقوا رفقاءه إلى قبرهم المتحرك ليدرك غريب أنه يجب أن يجد مهربًا من هذا الفخ الجهنمي قبل أن ينضم إليهم.

لكن مهلًا، النزلاء؟ أين هم؟ بالتأكيد هذا الكيان لا يحتوي على السجناء جميعًا، وهو قد رأى أحدهم نائمًا في زنزانته، واختفى بعدها بثوانٍ بلا أثر، أخذ غطاءه وخرج لـ...

لماذا خرج؟ كيف خرج؟ وإلى أين؟

ليس هناك سوى إجابة واحدة، جهة واحدة، عكس اتجاه الكائن الشيطاني الذي يسد عليه طريق الرجوع، نهاية الممر حيث الصالة الكبيرة التي كان يجتمع فيها السجناء.

يجب أن يسرع، لكن دون جلبة، سدد ضوء كشافه للأرض، تحسبًا لو كان هناك أحد من السجناء لا يزال لديه بقايا من حاسة النظر، فبالرغم من رؤيته لذلك الكائن المخيف لكن السجناء أنفسهم يثيرون فيه رهبةً وقلقًا لا حدود لهما، فهو لا يمكنه تخيل ما آلوا إليه بعد أعوام من سجنهم في هذه الظروف غير الآدمية.

المنسيين.

سار غريب بحذر في منتصف الممر، بعيدًا عن القضبان الشرهة التي تتخطف البشر وبعيدًا عن الجدران الباردة المغطاة بتلك الطبقة السوداء من السخام والظُلم، اعتادت أنفه الرائحة العفنة نوعًا ما، لكنه موقن أنها سوف تصيبه بمرض صدري فتاك لو لم يخرج من هنا في أسرع وقت،كان يتوقف لينصت كل بضعة خطوات وينظر وراءه كي يتأكد أن مزيج الأجساد المتحرك لا يتبعه، تفادى الحطام

والأوساخ والركام وحرص على عدم الخطو فوق الأشياء الهشة كي لا تنكسر وتنبه سكان المكان.

ثم توقف، هذا صوت جديد ذلك الذي يسمعه، صرير معدني لا يعني سوى شيء واحد: هناك باب زنزانة ينفتح.

ارتعش الكشاف في يد غريب وهو يسلطه على جدران الممر لعله يرى الزنزانة التي فُتحت لتوها، بالفعل يراها، على بعد ثلاثة عيون، بابها المعدني، الذي هو عبارة عن قضبان، مفتوح على مصراعيه.

تررن.

انتفض حين صدى صوت الهاتف المعدني من ورائه، لقد تحرك الكائن... ويقترب.

أدرك أنه أصبح محاصرًا، فهتف لنفسه:« تحرك يا غريب، ارفع قدمك المغروزة في الأرض الخرسانية وتحرك»، وبأعجوبة نجح في الامتثال لصوت العقل، خطا بأقدام مرتعشة ناحية الزنزانة المفتوحة، يسلط نور الكشاف عليها، يقترب.

ثم... يصل إليها.

ويجدها فارغة.

تنفس الصعداء، واستمر في طريقه، أيًا كان سبب انفتاح الباب، فهو ليس بحالة عصبية تسمح له بالتحليل والتفكير فيه، دقائق مرت عليه كالدهر وهو يسير عكس الاتجاه الذي يسمع منه جرس الهاتف، أخفض ضوء الكشاف ووضع كفه عليه ليجعله أقل حدةً فضاعف لونه الأحمر كآبة المكان، تحسس بعدها طريقه في أكثر الدهاليز

ظلامًا وبرودةً وإثارةً للرعب والاشمئزاز حتى وجد أمامه مساحة مفتوحة.

وهناك من يسد عليه الطريق... رجل.

أحد المنسيين.

سجينًا هزيلًا حافي القدمين أشعث الشعر في هلاهيل قذرة يمسك في يده غطاءً متسخًا، إنه من كان نائمًا في أول زنزانة... يقف الآن بلا حراك.

تسمر غريب مكانه وضم كفه بقوة على زجاج الكشاف كي يخنق ضوءه أكثر حتى لا ينتبه إليه السجين، حاول كتم أنفاسه، التحكم في خفقان قلبه، حاول أن يتحول إلى تمثال أصم، لكن جسده كله كان يرتجف، حتى لعابه، فقد اكتشف أنه قد جف تمامًا وهو يحدق جاحظ العينين في ما تمنى ألا يقابله...

ثم تسمر مكانه حين سمع صوت الهسيس الخافت.

«... مسسس».

تحفزت حواسه كلها ليرهف السمع، وبيد مرتعشة حرك ضوء الكشاف المنساب في خجل من بين أصابع كفه كي يمسح المكان، ويا ليته لم يفعل، فهذا السجين المتخشب مكانه لم يكن الوحيد هنا، دقق النظر في الصالة الفسيحة ليرى...

العشرات من المساجين، رجال ونساء، منتشرون في الصالة التي لا يعرف أبعادها، فهو لا يرى أبعد من بضعة أمتار، أجساد هزيلة بالية بالكاد تكسو جلودها العظام، شعور شعثاء قذرة وأنسال تغطي أقل

القليل من أجسامهم، يجلسون في صفوف على شكل أنصاف حلقات ذوات مركز واحد، مفترشين أغطيتهم، ورقابهم ممدودة، ينظرون لنقطة ما في طرف الصالة البعيد.

مشهد رهيب، تقشعر له الأبدان.

ثم سمع الهسيس مرةً أخرى، إنها كلمة ما، كلمة مصدرها ذلك الجمع الصامت، نطقوا بها جميعًا في نفس اللحظة، فتخون غريب ركبتيه لكنه يتماسك ويثبت في مكانه كالتمثال، ينتظر، حتى...

صوت رنين الهاتف من بعيد و...

«أمسس»، كانت الكلمة التي كرروها جميعًا همسًا في نفس اللحظة كأنهم شخص واحد، لم يعرف غريب إن كانت «أمس» أم «همس»، لكنها خرجت من أعماق صدورهم، سرت رجفة قوية في جسده بسبب الطريقة الآلية التي نطقوها بها، خصوصًا وأنهم قد مالوا جميعًا بأنصاف أجسادهم العليا في تناغم يحسدهم عليه أكثر الفرق الراقصة حرفيةً.

وثبتوا على هذا الوضع... مائلين إلى اليمين.

جفل غريب حين تحرك الواقف، فسلط الضوء الأحمر الخافت ناحيته ليجده قد جلس بين الحلقات، أنصاف دوائر تحيط بأنصاف دوائر أصغر منها من «المنسيين»، مركزها لا يزال بعيدًا عن ضوء كشافه.

ثم... سمع الرنين... من خلفه.

إن حامل الهاتف يقترب.

وفي نفس اللحظة انحنى المنسيون الجالسون في حلقات بأنصاف أجسادهم يسارًا، وثبتوا على ذلك الوضع وهم يقولون... : «أمسسس».

ظل يفكر لثوانٍ، متردّدًا، قبل أن يخطو داخل الصالة، بأقل صوت وبقمة الحذر، ليدور حول محيط نصف الدائرة الكبرى، بأقدام مرتعشة وأنفاس مبهورة، تفادى غريب الركام وأي شيء يمكنه أن يصدر صوتًا ينبه الحشد الساكن المخيف الذي يسير بجواره، لكن هذا جعله يلاحظ السلك، كان رفيعًا، مهترئًا، أسود مقشورًا ومنكشفًا في مواضع عديدة... كان سلك الهاتف.

وجّه ضوء الكشاف ناحية المنسيين ورأى أنهم لا يشعرون بوجوده، عيونهم الرمادية عمياء، يجلسون كتماثيل قذرة، نحيفة، تركيزهم كله منصب على نقطة ما بمركز نصف الدائرة، يكاد ينخنق من هول رائحتهم، ينقبض قلبه من السواد الذي يحيط بهم، هالة كئيبة مظلمة.

انتبه غريب إلى السلك مرةً أخرى ورفعه ليرى أنه ممتد من الممر من حيث جاء - حتمًا يمتد من الكائن الجهنمي حامل الهاتف - إلى مركز نصف الدائرة، تتبع السلك ليكتشف أنه متصل بحائط، جدار مختلف عن بقية الجدران، مبنى بالطوب الأحمر بينما بقية الحوائط بالأسمنت المدعم بالحديد، بدا له أنه بُني حديثًا، وليس عتيقًا مثل بقية السجن، به ما يشبه الفتحة، في منتصفه تمامًا، من حيث يخرج السلك، ليست عميقة، أقل من نصف المتر، كذلك عرضها له نفس الطول، مكعب منتزع بالكمال من الجدار.

هذا مكان الهاتف بالتأكيد، هكذا يستنتج غريب، ثم يطرق، مفكرًا، لهذه الدرجة كان المنسيون يتوقون لاتصال يأتيهم من الخارج، ينتظرون عشرات السنين كي يسأل عنهم أحد، حتى لو كانت مكالمةً واحدةً؟

لهذه الدرجة صاروا يبجلون الهاتف كأنه هبة مقدسة من السماء؟

اقترب غريب من الحائط ذي الطوب الأحمر، لكن قبل أن يصل إليه، يجفل، حين يصدى رنين الهاتف، استنتج أنه صار بالقرب من مدخل الصالة، فقد صدى متزامن مع الكلمة، والتي نفثوا بها في آن واحد وهم يميلون بأنصاف أجسادهم العليا يمينًا مرةً أخرى.

... «أمسسس».

التفت إلى الحشد، فقد كانت الكلمة تلك المرة في أذنه أقرب إلى... «شمس»، تقلصت أمعاؤه وانقبض صدره حين فك شفرتها، إنهم يناجون الشمس، يرجونها أن تطل عليهم، أن ترحمهم من الظلام و... النسيان.

«شمس!»

هتف الحشد بها ومالوا يسارًا ليرتعد غريب ويتراجع، كف يده لا تزال تحجب معظم ضوء كشاف هاتفه المحمول، حتى اصطدم بالجدار، انكمش مكانه وهو يراقب المشهد الكابوسي.

العشرات من أشباه الموتى، بقايا آدمية لا تأتي بحركة سوى تلك الانحناءة البسيطة حين تصدى رنة الهاتف مع نطقهم لكلمة «شمس»، وتلك التشنجات الخفيفة التي تكاد لا تُلاحظ، في

اللحظات النادرة التي ينطقون فيها بهذه الكلمة، تنشق شفاهم السوداء عن فتحة ضيقة يرى فيها بقايا أسنان حادة قذرة غير منتظمة، فيقشعر بدنه حين يتذكر القضبان المعدنية التي قضمتها تلك الأنياب غير الآدمية.

يدق الهاتف مرةً أخرى فينتبه غريب للسلك الذي يمسك به، جذبه بحرص ليخرج جزءًا منه صغيرًا من الحائط الطوبي، مجرد جزء متناهي الصغر، لكنه تسبب في سلسلة من الأحداث الرهيبة، فقد شعر غريب بصمت مريب يحدث خلفه، كأن الصالة خلفه صارت عدمًا.

ببطء شديد التفت غريب ، وذلك حين... نهض أحدهم.

ارتعدت أوصاله وهو يراقب السجين النحيل طويل القامة مهلهل الملابس الذي سار وسط الصفوف بخطوات سريعة، يفسح لنفسه الطريق ويزيح الأجساد والأكتاف بعنف متجهًا مباشرةً إليه، أغمض غريب عينيه وظل يردد «يا رب» بدون صوت، حتى شعر بأنفاس بشعة الرائحة... أمام وجهه بالضبط.

حاول التماسك، لكن الموقف كان أقوى منه، سَعَل، فانفجر المشهد.

لكنه انفجر بصورة لم يتوقعها غريب، ولا في أغرب أحلامه.

فقد توقع أن ينقض عليه المنسيون، وذلك الطويل أولهم، ليقطعونه إربًا بأسنانهم الحادة ولينتزعوا أطرافه بقوتهم غير الآدمية، لكن ما حدث هو أنهم... هجموا على بعضهم.

بأعين جاحظة ذعرًا من هول المشهد، تقهقر غريب إلى الحائط

وهو يرى المنسيين وقد تحولوا إلى وحوش ضارية تزمجر وتزأر في تكتل واحد من الأجساد، يتصارعون على شيء لم يفهمه غريب، شيء لامع يشق سماء الصالة ويقفز فوق الأجساد المتلاحمة.

تدريجيًا بدأت طبيعة هذا الشيء تضح، إنه شعاع ضوئي يخرج من الفتحة التي خرج منها سلك الهاتف، السلك الذي جذبه ليُسقط جزءًا من الطوب الهش، ويدخل الضوء ليسقط على المنسيين ويقفز من أحدهم للآخر حين يقطع مساره، فقام بجذب سلك الهاتف الذي يخرج من الجدار ليقع جزء آخر من الطوب ويتسع الثقب، تحمس وعاد إليه الأمل فى النجاة، فبدأ يجذب بقية السلك لعله يدله على طريق آخر للهروب، فهناك ضوء في الجانب الآخر، وما أن وقف أمام الثقب ووضع يده عليه حتى شعر بالدفء.

إنه نور الشمس، حتمًا هذا الجدار يسطع عليه من الخلف.

لكنه اكتشف أنه أخطأ حين حجب شعاع النور، فقط سكتت الملحمة الوحشية الدائرة في الصالة والتفت الحشد إليه... في صمت، فقط صدورهم هي ما تتحرك بسرعة مطردة من شدة المجهود، اعتدلوا ليواجهوا غريب، أحاطوا به، حلقات تضيق عليه، حتى توقفوا على بعد خطوات منه.

«شمس!» نفثوا بها كتنين واحد عملاق.

ودق الهاتف مرةً أخرى.

انتبه غريب إلى من يقف عند مدخل الصالة، المارد المروَّع من الأجساد الملتحمة، الضوء الذي شق ظلمة الصالة جعلته يرى أنه لا

زال يمسك بالهاتف، وأعين رؤوسه كلها تنظر إليه، أذرعه العديدة التي تنتمي لأناس يتعذبون بداخله امتدت لتفتك به.

وبدأ يركض ناحيته.

ليجعل شعر جسد غريب كله يقف ذعرًا.

أقل من ثانية، هو كل ما كان أمام غريب لينقذ نفسه من هذا الحصار الجهنمي.

وما كان منه سوى أن جذب سلك الهاتف الذي يخرج من الحفاوة بكل قوته.

لتنفتح هوة دائرية كبيرة.

ويدخل منها ضوء الشمس بغزارة ليسقط على المسخ العملاق.

وينقض عليه المنسيون طمعًا في الدفء.

ويقتطع كل منهم جزءًا من جسده، في مشهد مفزع من الدماء وعويل الوجوه وصراخهم.

يستغل غريب الفوضى الدموية ويكسر جزءًا آخر من الفتحة لتتسلل الشمس بعد سنوات من الغياب.

خرج غريب من الفتحة في اللحظة الأخيرة قبل أن يلحق به انتقام المنسيين بعد أن حجب جسده عنهم دفء أشعة الشمس.

ليجد نفسه في مدينة مهجورة من البيوت ذات الطابق الواحد.

(7)

حاولت ابتلاع ريقي لأجد حلقي جافًا كما الأسفلت فقلت بصوت مبحوح:

-إنتي عايزة تفهميني إنك مصدقة الحكاية دي؟

-لاء طبعًا، بس كانت مسلية جدًا، وقلت له كده على فكرة.

هكذا أجابت وهي تنهض لتأتي لي بكوب ماء من المطبخ، هتفت بها سائلًا:

-وقال لك إيه؟

-قالي «ليه يا مدام»، طريقته في الكلام قديمة أوي، زي ما يكون رئيس خدم القصر في أفلام «زكي رستم».

هكذا أجابتني وهي في طريقها عائدةً لتجلس بجواري وتعطيني كوب الماء، مستطردةً:

-قلت له «أنت مستوحي القصة من البلد اللي جنبنا دي، وكان فيه واحدة شبهها ورا الكوافير، شفتها من الشباك، وبعدين أنت مستحيل تنجى من القصة دي». راح قايلي - ومطخن صوته كده علشان يبان فخم - «أنا حلاق الصحة يا مدام، والحلاق دايمًا بيفضل عايش، وبعدين الحكاية نفسها ممكن تكون حكايتي أو حكاية زميل، كلنا واحد».

-إيه عندهم سوبر باورز؟

هنا سألتها فنهضت وهي تقول:

-المهم إنه راح ضارب الهواء بالمقص تلات مرات قبل ما يقفله ويحطه في جرابه ولا أجدعها نينجا، شخصية أنتيكة.

راقبت زينة وهي تدخل غرفة النوم.

-أنا رايحة التمرين.

لم أجبها وشردت في هول ما هو قادم، أنت لا تدركين أبعاد الموضوع يا زينة، لا تدركينه بتاتًا.

***

أمضيت اليوم في صحبة تؤ وروائح أعشابه الجهنمية، أخذ تؤ يشتكي ويرطن بشيء ما له علاقة بماضي عائلته العريق في المنطقة وكيف أنهم أول من نزحوا للمناطق المحيطة بالقاهرة - والمعروفة الآن بالمجتمعات العمرانية الجديدة - منذ أكثر من قرنين، فما كان مني سوى أن زجرته قائلًا بعصبية:

-خلصنا يا مرسي، هخليهم يزودولك الأوفرتايم، اسكت بقى.

رماني بنظرة نارية من تحت جفن مرتفع قبل أن يبادرني بـ«تؤ» أخيرة ويفتح الراديو على القناة «003»، كأنه قد تآمر مع الجهاز اللعين على إرهابي بهذا العد التنازلي، لكن لحسن حظي لم يخرج منه صوت يُذكر، مما ساعدني على الاسترخاء وتصفية ذهني، سبب آخر لعصبيتي الزائدة من تؤ كان يرجع إلى أن ما كان يحدث لي بدأ حين تجاهلت نصيحته، أو هكذا بدا لي، رميته أكثر من مرة بنظرة جانبية وحاولت مداعبته لأجده «مقموصًا» مني كالأطفال، لكنه لم يكن الوحيد الذي كان يعاملني بازدراء.

لمحت بطرف عيني العمال والمقاولين، حتى المهندسين، يرمقونني بنظرات متفحصة غير مريحة، لم أعلق بطبيعة الحال، خصوصًا بعد فعلته آنفًا من جنون وأنا أبحث عن صالون حلاقة خفيّ في موقع تحت الإنشاء، لكن العجيب والمريب لأقصى حد، هو أن الظاهرة امتدت إلى خارج الموقع، فحين خرجت لأبحث عن مكان أتناول فيه الغداء بعيدًا عن نظرات زملائي، وجدت أن الناس في الشارع ينظرون إليّ هم الآخرون، أشخاص لا أعرفهم ولا يربطني بهم أي صلة، يتابعونني من بعيد بدون أي حياء كأنني فقرة في سيرك، في السيارات، في المواصلات، على الأرصفة، وأمام المحلات، الكل يحدق بي كأنه لا وجود لشيء سواي.

حاولت أن أبادل بعضهم نظراتهم الجريئة بأخرى عدائية، لكنه لم يثنهم عن ملاحقتي بعيونهم، عدت للموقع دون غدائي وطلبت من تؤ أن يأخذني للبيت، فعلها بدون تعليق، ولا حتى «تؤ» وإن ظل يرميني بنظرات خفية كل حين وآخر، فما كان مني سوى أن أتفادى نظرات الجميع.

عدت لمنزلي لأجده غارقًا في الظلام، لم ألقِ بالًا بالأمر ولم أبحث عن زينة لمعرفتي أنها في التمرين، لكنه لم يمنعني من مسح الشقة بعينيّ لحظة دخولي، التوتر يتملكني، الشك في كل شيء، و...

هذه... الرائحة.

استدرت ببطء لأنظر حولي ووقفت في وسط الصالة الصغيرة محاولًا استنتاج مصدر تلك الرائحة الكريهة، إنها قادمة من المطبخ، يممت شطري تجاهه ووقفت أمامه، شيء ما جعلني أمد يدي

لأضغط زر الإنارة دون أن أدخل بنفسي، كان مظلمًا أكثر من المعتاد، ما أن أضاء المصباح حتى عادت إليّ شجاعتي ودخلت.

لم أستغرق كثيرًا في البحث عن مصدر الرائحة، فسلة النفايات ممتلئة عن آخرها بل وسقط بعض بقايا الطعام حولها، عجيب، هذا ليس من طبع زينة، توجهت للسلة وبحثت عن أحد الأكياس السوداء لأفرغ فيها النفايات لكني فزعت كما لم أفزع في حياتي من قبل.

فقد نهضت زينة من جلستها في الركن ووقفت بجواري، انتظرت حتى عادت الدماء لتضخ في عروقي وتلعثمت:

-إيه؟ فيه إيه؟ فزعتيني يا زينة، قاعدة في الضلمة ليه؟ وسايبة الزبالة تتوحش علينا كده ليه؟

بدا لي أنها تائهة نوعًا ما، غير متزنة، أمسكت بذراعها فانتبهت للحظة وقالت شاردةً:

-مش عارفة، نسيت أطلعها، سيبني والنبي يا فتحي، أنا اتأخرت على التمرين.

-تمرين؟ إنتي لسه هتروحي التمرين؟ الساعة حداشر ونص.

نظرت إليّ مبهوتة وانعقد لسانها باحثةً عن رد.

-إيه ده؟ أنا نمت في المطبخ ولا إيه؟

كانت حالتها مزرية ورائحتها كريهة، فما كان مني سوى أن أخذت بيدها للحمام وتركتها هناك لتأخذ حمامًا سريعًا وذهبت لتنظيف المطبخ والتخلص من النفايات.

لكن لا، هذه ليست مصادفة، اللعنة عليك يا غريب، اللعنة عليك، لقد تعقد الأمر عما كان، تقلصت معدتي حين تذكرت القصة الأخيرة، يجب أن أفك طلاسمها قبل أن تبدأ أحداثها في التكرار في الواقع، فالأمر لا يتعلق بعضّة أحتملها أو ذرية أؤجر على الحرمان منها، والرائحة الكريهة هي أهون ما يمكن أن يصيبني، أقل تفاصيل قصة «المنسيين» هولًا.

كلا، لن أنتظر حتى تدمر حياتي قصص حلاق صحة مخبول.

***

في الصباح التالي كنت فجرًا في الموقع، قبل قدوم العمال، ووقفت أمام تلك العمارة التي انتقل إليها صالون غريب بقدرة قادر واختفى بعدها بدقائق، وقفت أمام العمارة غير المأهولة المكونة من أربعة طوابق، عينيّ ثابتة على الدور الأرضي، الذي كان لا يختلف عن بقية المبنى، كان خاويًا كأطلال بلدة عقب غارة جوية، لا أثر للصالون أو اللافتة أو أي شيء يوحي أنه كان هناك دكان حلاقة منذ أيام.

دون أن أتحرك من مكاني، جلت ببصري في الشارع، أيمكن أن أكون أخطأت المكان؟ كلا، إن الشارع ليس به بنايات كثيرة، بضع عمارات قصيرات متناثرات يفصلهن عشرون مترًا من الأتربة والأسفلت المكسر عن سور المنتجع.

«تؤ».

هكذا سمعت من ورائي فالتفتُّ إلى مرسي الذي كان يراقبني

من خلف مقود السيارة، نفس تعبير الملل والكآبة المنحوت على ملامحه الدقيقة شبيهة الفئران قبل أن يتظاهر بتعليق حزمة جديدة من أعشابه اللعينة، تجاهلته وتقدمت للعمارة، ووقفت أمام الدكان المهجور، الباب يفتقد حلقه وكذلك الڤاترينة تفتقد إطارها الخشبي، ركام يملأ المكان، عروق خشب مكسورة وأكياس أسمنت خاوية وبقايا مكونات بناء مختلفة تركها العمال ورائهم حين انتهوا، نظرت للبقعة التي كان بها الكرسي وترددت للحظة نظرت فيها للعم تؤ، ليس لشيء سوى لبعض الاطمئنان، لا جديد، نفس تعبير الملل والتذمر الصامت على تضييعى لوقته الثمين وإجباره على الاستيقاظ قبل الفجر.

أخذت قراري ودخلت المحل المهجور، نفس المساحة والتقسيمة التي كان عليها صالون غريب، الحائط إلى يساري هو الذي رأيت فوقه صور الزبائن وأمامه مكان الأريكة اللينة العملاقة، وأمامي مكان حوض غسيل الشعر، مصادفة؟ خطوت فوق الركام والحجارة والأسمنت المتحجر ليصدى صوت تكسيرها في المكان وهتفت:

-غريب... ! عارف لو حصل لزينة حاجة؟ عارف لو حياتي باظت أكتر من كده... هبلّغ عنك! وانسى إني أجيلك تاني، شوف حد غيري بقى تحكيله التخاريف بتاعتك دي!

جفلت حين تحرك شيء في الجانب الأيمن، بجوار الحائط، تسمرت مكاني وأنا أحاول استنتاج ماهيته، هل هو فأر؟ كان قريبًا منه في الحجم، ظللت في مكاني دون حراك أحاول كشف مكانه والتأكد مما رأيت، حتى تحرك ثانيةً.

مهلًا، إنه يطير.

يا ربي، ما هذا الشيء؟ كتلة مبهمة من السواد كأنها دخان كثيف لدرجة جعلته شبه رمادي، طار في منتصف الغرفة، ثم دار حول نفسه كأنه في طاحونة هوائية مصغرة، ثم... هجم عليّ.

قفزت للوراء مذعورًا فتعثرت في عرق خشبي متآمر لأقع على مؤخرتي في نفس اللحظة التي انقض فيها الشيء على وجهي.

هنا صرخت بأعلى صوتي وسببت «الشيء» بما تيسر لي من جواهر الشتائم وأنا أضربه من على وجهي بهيستريا، وما أن شعرت أنه لم يعد على وجهي فتحت عيني لأبحث عنه مذعورًا منقطع الأنفاس.

-مالك يا فندي؟

انتفضت مذعورًا للمرة الثانية وقلبي كاد أن يقفز من صدري لأجد العم زفت يحدق بي بنفس التعبير الكسول من خارج الدكان المهجور.

-يا عم ابقى قول إنك هتتنيل تيجي!

-ما أنا شفتك بتتنطط لوحدك كده زي... لا مؤاخذة يعني، وبعدين لما وقعت...

-خلاص خلصنا.

قلتها بعصبية وأنا أنهض لأنظف ملابسي وكرامتي وبحثت بكل تركيز عن ذلك الشيء الذي هجم عليّ قبلها بثوانٍ، حاول مرسي أن

يقول شيئًا لكني أسكته بإشارة حازمة فاستسلم وسكنت حركته، دقيقة طويلة مرت قبل أن ألمح الحركة مرةً أخرى فصحت في مرسي:

-أهوه! اللي هجم عليا أهوه.

-أهوه إيه يا فندي، وهجم عليك إيه؟ دول شوية شعر طايرين.

***

-مرسي، اللي بيمشي في شارع سبع مرات، عايز أعرف بيحصله إيه بالظبط؟

سألته ونحن جالسون أمام الكاراڤان نحتسي الشاي الذي لا أطيقه من يده، لكني كنت مجبرًا عليه كي يلين لي، توقف عن رشف الشاي وتخشب بوزه على حرف الكوب للحظة لكنه تدارك نفسه وأتم مهمته بنجاح وبصوت «شفط» جبار، وضع كوبه على الطاولة المعدنية وشرد بعيدًا.

-مرسي... !

قلتها منبهًا لكنه ظل يحدق في الأفق فوق العمارات المهجورة والتلال الرملية كأنه فنان ينتظر إلهامه فكررت ندائي، أخذ نفسًا عميقًا وسألني وهو يرميني بنظرة ضابط مباحث:

-جنابك شفته، مش كده، النوبة اللي عمناول؟

-هو مين اللي شفته؟

-الغريب.

هرب الدم من عروقي وتيبست يدي الممسكة بكوب الشاي وأنا أحدق بجليسي من دون فهم، كيف عرف؟

-غريب؟ الحلاق؟

-حلاق مين يا هندزة، غريب ده مش بني آدم.

ابتلعت ريقي وسألته:

-مش بني آدم إزاي يعني؟ ده حلق لي شعري يوم قراية الفاتحة ويوم دخلتي، ده قص شعر مراتي يا مرسي!

هنا اختلف تعبير وجهه للمرة الأولى منذ رأيته وبادلني نظرتي بأخرى أكثر حيرةً قبل أن يغمغم بما استنتجت أنه:

-يا فندي الغريب ده محدش يعرف هو إيه، أهي قصة العرباوية بيحكوها لبعض من زمان، معرفش أصلها منين.

-قصة إيه؟

-ما بلاش يا فندي، ما إحنا «جلناها» لكم يوم ما حطيتوا إيديكم على أرضنا ورميتوا لنا ملاليم، راح البيه مدير الشركة ممسخر بكبيرنا الأرض.

-ملناش دعوة بالقصة دي يا مرسي، احكي وأنا هصدقك.

رمقني للحظة، ملامحه جامدة لكنها ليست ودودة، قبل أن تنفرج شفتيه عن شبح ابتسامة وترتخي ملامحه القاسية ليتكلم، وما حكاه لي كان ما توقعته تمامًا، تخاريف لم أكن لأصدق منها حرفًا، لولا ما مررت به، ورغم هول ما حكاه لي، لكني لم أجرؤ أن أستخف بكلمة

منه.

***

الأسطورة تقول - القصة التي يتداولها البدو - أن من يقطع طريقًا مجيئًا وذهابًا أكثر من سبع مرات فستبدأ أشياء غريبة في الظهور، أشياء وتفاصيل لم تكن هناك من قبل، مكان غريب، شخص غريب، شيء غريب أو حتى حدث غريب، أيًا ما كان فهو يظهر من العدم وللشخص الذي يطوف بالشارع فقط، وليس لمخلوق غيره.

سألته عن أصل تلك الحكاية الغريبة، أخبرني أنه ربما كان في سيناء أو بلدة ما نائية في الصعيد، أما متى ظهرت فلا يعلم بالضبط، جذورها فلكلورية تختلف حسب المكان الذي تُحكى فيه، منها من يتحدث عن مسافر تائه بين المدن يبحث عن طريقه في مدقات معزولة وممرات لا يسلكها سوى الضواري والثعابين، ومنها من يقول أن هناك عالمًا كاملًا لا نراه سوى بهذه الطريقة الغريبة، حينها ينفتح باب غير مرئي يصل بينه وبين عالمنا، وهناك نظرية صوفية تقول أن الطريق نفسه له إرادة خاصة به وأن هناك صلة تنشأ بينك وبينه لو ارتبطت به أكثر من اللازم، ولهذا فهو يتفاعل معك بطريقته.

كل هذا بالطبع أعدت صياغته لنفسي بطريقة منظمة عقلانية، لوحة «بازل» جمعت أجزاءها من التخاريف التي ألقاها على أذني عمنا تؤ، أيًا كان التفسير، فكلهم خيالي لا يستطيع عقلي الهندسي أن يصدقها، لكن المؤكد أنني رأيت هذا الغريب، في صالون الحلاقة الخاص به، ينتظر كي يقص لي شعري ويروي لي قصصه، وهنا تذكرت.

-واللي بيحصلك ده ممكن يؤثر على الناس حواليك؟

-يا هندزة أنا ما نعرف، عمري ما عملتها ولا عمري هعملها، بس فيه سواق زمان عملها في توشكى، لما كنت شاب من سنك كده، واتهبل بعديها خالص.

-حصله إيه؟

-قعد يقول إنه شاف يفط عليها آيات قرآنية مكانتش موجودة قبلها في المدق اللي مشي فيه سبع مرات، بعد شوية شاف عشة عايش فيها حلاق صحة.

تملكني الحماس والفضول.

-والناس شافوا اللي قال عليه ده؟

ظل يحكي بنفس النبرة الناعمة المستفزة.

-ولا أي حاجة، راح منهم نفرين معاه مشافوش لا يفط ولا عشة، قالوا تلاقيه كان «مصطبح» ولا حاجة، قعد يحلفلهم ميت يمين إنه شاف الحلاق ده وقصله شعره كمان، وحكاله قصة لها العجب.

-قصة إيه؟

سألته ولعابي يكاد يسيل فما كان منه سوى أن حدجني بنظرة طويلة، يفكر، متردّدًا في أمر ما، قلت بكل تحفز وغيظ:

-انجز يا تؤ! أنا حياتي بتتسرق مني!

انتبه إليّ وحسم قراره قائلًا:

-هحكيلك القصة الوحيدة اللي سمعتها وأمري لله، بس ركز لأجل النبي، يمكن تقدر تفهم.

-احترم نفسك يا بني آدم!

الفجر

(8)

انتفض غريب من سريره حين سمع الزغاريد البعيدة، منذ أيام بلغهم مرور قافلة من الغجر والغوازي بالقرب من قريتهم وانتظر الكبير قبل الصغير الحدث المثير كأنه سيرى موكب الملك، هرع لأبيه - كل ما تبقى له من عائلته - ليجده قد خرج من بيتهم الطيني المتواضع ووقف على عتبته وفي يده زجاجة يلمعها بطرف مئزره الأبيض، وما أن رآه حتى قال:

-خلصت اللى عليك؟

-خلصت يابا، غسلت العدة والطست و«عبّيت» السبرتو في الأزايز، أروح أتفرج على الغوازي والنبي يابا.

هكذا أجابه غريب وهو يتقافز أمامه كالضفدع من فرط الإثارة، فما كان من أبيه سوى أن التفت ليتابع الراحلة، تلك التي كانت تسير بحذو القرية بعد غيط الطماطم لتثير التراب في طريق القوافل المرتفع، هوادج وجمال وخيول يمسك لجامها رجال أشداء، نساء في ملابس زاهية تمتطي ظهورها، رغم المشهد المبهج لكن الأب - حلاق الصحة المخضرم - عبس قائلًا:

-هتشوفهم يا غريب، الغوازي مشاكلهم كتير وبيجيبوا معاها شغل ياما، ربنا يعديها على خير ويرحلوا عننا في سلام.

باءت محاولات غريب وتوسلاته لأبيه كلها بالفشل لكن سرعان ما فهم منه أن حول قوافل الغوازي تكثر الحوادث، فهناك ألعاب خطيرة ومشاجرات بسبب الراقصات وحلبة مصارعة يتطاحن فيها الرجال

كالتيوس.

لكن ذلك المشهد «المبهج» كانت به شائبة واحدة، تلك المرأة هائلة الحجم المتشحة بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها والتي تجلس بجوار سائق الهودج، شيء ما في هيئتها المهيبة جعلت قلب غريب ذا الأعوام العشر ينقبض، وخصوصًا أنها كانت تنظر ناحيته، أو هكذا استنتج من وضع رأسها، كان شبه مستحيل تمييز عينيها من خلف البرقع الأسود، لكنه شعر أن هناك نقطتين باللون الأبيض تطلان عليه رغم المسافة، عينين تخصانه دون غيره، فابتلع ريقه وانسحب داخل البيت.

***

وبالفعل، تحققت أمنية غريب في الليلة الأولى وقبل الفجر بدقائق قليلة، حين دق الباب، قفز من فرشته ليفتح ويجد أمامه مصيلحي «الزرايبي» ذا الثلاثين ربيعًا والجسد الضئيل يقف مقطوع الأنفاس، «مشلحًا» جلبابه كأنه داخل مرحاض.

-أبوك صاحي؟

كان مصيلحي يأتي لهم بالزبائن مقابل نسبة، سواء من القرية أو المناطق المحيطة، وهو دور هام نظرًا لعدم وجود تسويق بالمعنى الحديث وقتها، سد غريب أنفه من هول رائحة مصيلحي وكان على وشك سبه لكنه رأى أبيه يخرج من المرحاض مشمرًا عن كوعيه أثر الوضوء وهو يومئ له برأسه قائلًا:

-روح جهز العدة.

***

سار غريب خلف أبيه حاملًا حقيبته الجلدية السوداء وهو يكاد يحلق من فرط الشوق لرؤية عالم الغوازي العجيب، قادهما مصيلحي عبر الغيطان المظلمة حيث لمحوا بعض الرجال في طريق عودتهم لبيوتهم، تفادى الجميع المصباح الزيتي الذي يحمله أبو غريب كي لا يفضحهم نوره لكن ترنحهم كان واضحًا للأعمى، وكذلك احتقان وجوههم.

بلغوا مساحة مفتوحة من أرض بور نصب فيها الغوازي خيمهم الأربعة ليجدوا أن المولد قد انفض لذلك المساء، لم يبقَ سوى متسكع يترنح هنا أو مُغشى عليه هناك بينما تغرق الساحة في شبه ظلام، أربع خيمات هائلات الحجم منصوبات على شكل علامة «+» في وسطهم مساحة مربعة يقام فيها الاحتفالات، يضاء مدخل إحدى الخيمات بمصباح زيتي معلق على عامود بينما لا يخرج من الثلاثة الأخريات سوى بصيص شموع بالكاد يفضح الثقوب ويحدد الثنايا.

أشار لهما مصيلحي أن ينتظراه أمام الخيمة المضاء مدخلها وسبقهما للداخل كي يستأنس أهلها، استغل غريب الفرصة ليشبع عينيه من بقايا الاحتفال الصاخب، وكم كانت خيبته عظيمة حين رأى أن جميع الألعاب في المساحة المربعة قد انتهى منها الناس وتركها صانعوها، لا يكاد يسمع سوى هسيس خافت هنا وهمس خشن هناك، نداءات خفية لم يتمكن من فك شفرتها.

-المولد انفض يابا، جلت لك نيجي بدري.

-الهيصة دي هتجعدلها كام يوم في الناحية، إحنا جايين شغل،

استرجل أومال.

هكذا نهره أبيه في رفق قبل أن يضمه إليه وهو يجول ببصره في المكان، شيء ما في تلك الحركة البسيطة أصاب غريب بالتوتر، فهو لم يرَ على أبيه توجسًا مثل ذلك من قبل، شيء ما جعله ينظر لما يحيط به بعين مختلفة ولم يعد الفضول فقط هو ما يحركه.

جفل حين شعر بشيء ناعم فوق رأسه فنفضه كالملسوع ليجده تراب يتساقط عليه من الشجرة، نظر فوقه، للغصن الضخم الذي يحلق فوق الخيمة ويظلل مدخلها، لكنه لم يرَ سوى كتلة من السواد تنكمش.

هل كانت تتحرك مبتعدة أم تلاعبت به مخيلته بسبب الأضواء الشحيحة؟ لم يدرِ غريب حينها ولم يهتم، ويا ليته فعل، يا ليته دقق في كل حركة وكل ظل، ولو كان قد فعل لاختلف كل ما جاء بعدها.

ولما صار وحيدًا ميت القلب بعدها.

عاد غريب ليجيل نظره في الساحة المربعة التي شهدت حفلًا صاخبًا قبلها بساعات قليلة، ضوء المصباح الوحيد الذي بث الروح في الأشجار مع ألسنة النور الخافتة التي تنطلق من بين فتحات وثقوب الخيمات وتختفي بين لحظة وأخرى جعل من المكان خشبةَ مسرح مقبضةً.

خشبة مسرح انسدل فوقها الستار وصارت ساكنةً... صامتةً...

جفل مرةً أخرى حين لمح ذلك الظل الذي مر أمامه على الأرض مصحوبًا برفرفة خافتة، نظر فوقه ليلمح طرفًا طائرًا يختفي فوق

الخيمة البعيدة بين الأغصان المتشابكة والغارقة في الظلام، كم كان كبيرًا.

ثم انتفض حين...

-اتفضلوا.

هكذا زعق مصيلحي، ربت أبو غريب على كتف ابنه ليهدئ من روعه ثم سبقه داخل الخيمة، استجمع غريب شجاعته ودار بعينيه مرةً أخيرة في أنحاء الساحة ليتخشب في مكانه حين رأى جسد الرجل المُغشى عليه يزحف ببطء، ثوانٍ طويلة مرت على غريب وهو يراقب الجسد الهامد يزحف في الظلام حتى اختفى داخل الخيمة البعيدة، تلك التي حط فوقها الطائر الضخم قبلها بثوانٍ.

مشهد جعل سؤالًا مؤرقًا يسطع في ذهن غريب: ما الذي كان يجذب هذا الشخص بذلك الهدوء... وتلك القوة؟

***

دخل غريب الخيمة ضعيفة الإضاءة ليرى أبيه جالسًا على ركبتيه أمام فرشة راقد عليها شخص ما، هناك مصباح زيتي معلق في منتصف الخيمة يخلق ظلالًا أكثر مما يضيء، بينما يُبقي أكثر من نصف الخيمة البعيد في ظلام، هناك زير ماء، آثار راكية نار منطفئة، كومة من الملابس والعديد من فرشات النوم.

لكن أكثر شيء لفت انتباه غريب لحظة دخوله كانت تلك المرأة المتشحة بالسواد والتي تقف عند طرف الفرشة، نفس المرأة العملاقة التي رآها تقود القافلة، حجمها كان غير طبيعي، منتفخة

مثل شجرة جميز نبتت فروعها من منتصف الجذع وليس قمتها.

ثم لمح عينيها الجاحظتين الكحيلتين تحدقان في وجهه بنظرة جانبية مريبة، حاول ابتلاع لعابه لكن حلقه كان جافًا مثل حجر الرحايا.

-العدة يا وله!

قالها أبيه بحزم فانتفض وكادت الحقيبة أن تنفلت ويقع كل ما بها، وفي نفس اللحظة سمع همهمة في مكان ما بالخيمة، فأدرك أن هناك من يقبع في الظلام، تجاهل الهمهمة الغامضة وهرع ليعطي الحقيبة لأبيه، انكمش بعدها بجواره ليراقبه من سكات وهو يفحص شيخًا محمومًا كان يرقد أسفل الغطاء، رفع أبوه من على جبهة الشيخ خرقةً مبلولةً وأعطاها لمصيلحي الذي كان يقف بجواره في خشوع، ثم كشف الغطاء قليلًا وما أن فعل حتى تجلى الجرح واضحًا في صدر الشيخ، أسفل رقبته بالضبط.

-هم عايزينك تداوي الحمى بس، ملناش صالح بالجرح.

هكذا قال مصيلحي فرماه أبو غريب بنظرة خاطفة ثم قال:

-الجرح هو سبب الحمى.

قام بعدها بفتح الحقيبة ليُخرج منها علبة خشبية صغيرة، فتح العلبة نفسها ليلتقط منها إبرة لامعة وبعض الخيط ثم قال لغريب:

-سبرتو.

لم يكن غريب منتبهًا لأبيه، بل لتلك الهمهمة التي تكررت، قادمة

من الجزء المظلم من الخيمة، لكزه مصيلحي فأسرع بفتح زجاجة السبرتو الصغيرة المعلقة في نطاقه وهو محدق في الظلام الذي بدأت تفاصيله تظهر تدريجيًا، حينها تمكن غريب من رؤية المزيد من الفرشات المنتشرة هناك وفوقها كان يرقد ما استنتج أنه بعض الغجر.

أمسك أبوه بيده وهو يعطيه الزجاجة فجفل لكن الأب الحنون ضغط على كفه كي يمده ببعض الأمان قبل أن يأخذ الزجاجة ليغسل بها الإبرة، قام بتنظيف الجرح بالسبرتو ثم أشار لمصيلحي كي يرفع له رأس الشيخ حتى يتمكن منها.

توقع غريب أن يصرخ الشيخ ألمًا حين تخترق سن الإبرة صدره لكنه ظل نائمًا لا يصدر منه صوت، فقط أنفاس سريعة متلاحقة وتشنجات خفيفة كأنه يحلم بكابوس.

هنا اعترضت المرأة - دون أن تغير من وقفتها عند طرف الفراش - وأصدرت طقطقة بلسانها كأنها تنادي على طيورها:

-تؤ تؤ!

-الجرح هو سبب الحمى.

هكذا كرر أبو غريب لكنها ظلت محدقة به دون رد، أو هكذا ظن غريب، فلم يعد هناك أدنى دليل على الجهة التي تنظر إليها، كأن بياضَ عينيها قد ذاب في سوادها، نظر الأب لمصيلحي فهز له الأخير رأسه كي «يجاري الزبون» فتنهد ووضع الخرقة جانبًا قبل أن يُخرج زجاجة دواء من الحقيبة.

ترك غريب أباه يعمل ما يجيد وعاد لينظر إلى النصف المظلم من الخيمة، محاولًا سبر أغواره، وما أن فعل حتى تقلصت أحشاؤه حين لمح حركةً هناك، كأن هناك من كان نائمًا وتململ في فرشته، في الظلام، دق النظر وولى ذلك الجانب كل اهتمامه ليتمكن بصعوبة من تحديد هيئة بضعة أفراد من بين نائم وراقد و... جالس ينظر إليه، لحظتها لم يدرِ غريب إن كانت إضاءة المصباح الوحيد الضعيفة أم غرابة وعناصره المخيفة هي ما جعلت بدنه يقشعر حين لمح تلكما العينين التي انعكس عليها نور المصباح في الظلام، قبل أن يغمض صاحبهما جفنيه ويستلقي مجددًا.

ثم سمع الصوت... طقطقة مثل الخشب المحترق، لم يعرف مصدرها، لكنها كانت قريبةً منه، ربما من ناحية... المرأة، تشبه كثيرًا ما أصدرته قبلها بعوانٍ، لكنها كانت خافتة، لا إرادية.

توتر غريب من الغموض المريب الذي يحيط به، وخطا ناحية أبيه ليحتمي به وهو يراقب محيطه بعيون قلقة.

-غريب!

هكذا نادى أبوه عليه لينبهه ليده الممدودة بزجاجة الدواء الذي انتهى منها فالتقطها غريب منه متفاديًا شرر نظراته، زفر الأخير في حنق ثم التفت بعدها للشيخ وقام بفتح جفنيه.

«غريب!»

هكذا صدى الصوت من جانب الخيمة المظلم فتوقف أبو غريب عن فحص عيون الشيخ ونظر لابنه قائلًا:

-جلت حاجة؟

-لاه والله يا بوي...

«جلت حاجة؟».

«لاه والله يا بوي».

تصلبت ملامح الأب بعد أن تكرر ما قاله هو وغريب للمرة الثانية، كأنه صدى صوت ارتد مرةً واحدةً فقط، ارتد على ماذا؟ لا يدري، فلا توجد حولهم جدران يمكنها أن ترد عليه صوته، نظر للشيخ لعله يكون هو من كرر كلامهما بينما نظر غريب للنصف المظلم، لقد جاء الصوت من هناك، كان موقنًا من هذا، وبنفس أصواتهما، ثم لاحظ ما جعل شعر جسده كله ينتصب؛ تلك الهيئات البشرية التي كانت تربض في الجزء المظلم من الخيمة العملاقة، لقد استقام منهم من كان راقدًا وولوا وجوههم جميعًا ناحيته.

جمهور صامت يراقبهم.

في نفس اللحظة انتفض أبو غريب واقفًا بغتةً ليضاعف ذعر ابنه الذي تلعثم:

-ف... فيه إيه يابا؟

وقف الأب يبحلق بوجه هرب منه الدم في الشيخ الراقد أمامه فأمسك غريب بذراعه لكنه نفض يده.

«فيه إيه يابا؟»

هكذا كرر أحدهم مقلدًا صوت غريب، بينما ظل أبوه يبحلق به

بعيون جاحظة قبل أن يقول بصوت مهزوز:

-محتاجين حاجة من الإسبتالية.

التفت بعدها للمرأة ليجدها على وضعها كما هي، كيان أسود بلا ملامح لا يمكن تمييز ظهرها من وجهها.

«محتاجين حاجة من الإسبتالية»، هكذا كرر أحد الجالسين في الظلام، بحث غريب بعينيه في النصف المظلم وللمرة الثانية لم يستبن سوى هيئاتهم البشرية، لكن حدسًا ما يخبره أنهم ليسوا كذلك، مشهد ساكن مريب يدور حولهم، مشهد بلا أدنى صوت... سوى تلك الطقطقة التي أصدرتها المرأة للمرة الثالثة، تلعثم مصيلحي هامسًا:

-إ... إيه اللي طالع من جرحه ده؟

قالها مشيرًا للشيخ، كان الأب يسد على غريب مجال الرؤية فتحرك الأخير خطوة لليمين كي ينظر إلى ما يشير إليه مصيلحي، تصلبت أطراف غريب وهو يحدق في ذلك الشيء الذي كان يخرج من جرحه، شيء أقرب إلى... إصبع.

- يلا نمشي يابا.

هكذا همس لأبيه في أذنه فما كان من العملاقة سوى أن قامت بأول حركة لها منذ أن رآها غريب: استدارت لتواجهه... وقالت:

«يلا نمشي يابا»، وبنبرة مثل صوت غريب تمامًا.

ثم لمح جفنيّ المرأة ينغلقان... رأسيًا... كضلفتي باب.

في نفس اللحظة قفز شيء ما من الجانب البعيد المظلم ليعبر سماء الخيمة ويستقر بجانب المدخل، لم يساعد الظل الذي خلقه عامود الخيمة على رؤيته بدقة لكن بتركيز بسيط شعر غريب أنه في هيئة رجل، لكن هناك شيئًا على ظهره... ذراعًا ثالثًا؟

ثم سمعوا صوت شيء ينكسر، صوت صادر من الشيخ الراقد.

تقدم أبو غريب ليزيح الغطاء من فوق الشيخ ليروا مشهدًا مروعًا، تحجرت الصرخة في حلق غريب ومعها كل أطرافه وهو يحدق بتلك الجروح التي ملأت صدر الشيخ و... تلك الأشياء الرفيعة التي تخرج منها،

تلك... الأصابع.

والتي كانت تكسر عظامه لتصنع... فتحات.

-ف... فيه حاجة بتطلع من جسمه!

هكذا قال مصيلحي الذي اعتلى وجهه تعبير مفجع بالاشمئزاز، وهو شيء صادم لو أخذنا في الاعتبار أن مهنته هي تنظيف الزرايب من روث البهائم.

لا إراديًا جذب أبو غريب ابنه ليضعه خلفه حمايةً له لكن عينيّ الأخير كانت لا تزال عالقتين بذلك الذي طار واستقر خلفهم، وذلك الذراع الذي يخرج من ظهره. مهلًا... إنه...

ولوهلة رآهما ينفردان وينقبضان... الجناحين.

«فيه حاجة بتطلع من جسمه»، هكذا كرر شبيه الإنسان ذو

الجناحين مقلدًا نبرة وصوت مصيلحي ثم تحرك ليسد عليهم طريق الخروج، وحين فعل دخل في دائرة النور ليروا أنه...

صبي صغير.

هنا أصدرت المرأة - التي تأكد غريب من كونها ليست كذلك - طرقعةً عاليةً كأن هناك إطار سيارة قد انفجر في الخيمة، وما كان من مصيلحي سوى أن استدار ليطلق ساقيه للريح، إلى خارج الخيمة.

رغم ضعف الإضاءة لمح غريب الجناحين البارزين من ظهر شبيه الصبي ينفردان، وفي نفس اللحظة أمسك أبو غريب بمصباح الزيت المعلق ليلقيه أسفل أقدام المرأة فيشتعل نصفها السفلي.

دارت العملاقة حول نفسها كفراشة مشتعلة وأصدرت صريرًا حشريًا كالرعد، تمكن أبو غريب من دفع ابنه خارج الخيمة في نفس اللحظة التي طار فيها شبيه الصبي في وجهه مصدرًا أزيزًا كدبور عملاق، ولو أضفنا إلى المشهد لمعان جناحيه الرفيعين لأدركنا أننا أمام...

صرصور آدمي.

تفادى غريب الطائر الكابوسي وزحف خارجًا من الخيمة وهو ينادي من بين دموعه على أبيه، وبأقصى ما مكنته به حنجرته:

-آباااا... آبا...

وما أن خرج حتى انبعثت الحياة فجأةً في الساحة المظلمة التي تتوسط الخيمات الأربعة.

«آباااا... آبا... »

هكذا صرخت ظلال غير واضحة تحيط بالساحة، تسمر غريب مكانه عند فتحة الخيمة وهو يتلفت حوله محاولًا التقاط أماكن تلك الأشياء التي صرخت بكلماته.

ثم لمحهم فوق الأغصان وبين الخيمات، من الأركان المعتمة وخلف جذوع الأشجار، ظلالًا ليست لها هيئة واضحة سوى تشابه طفيف بالبشر. تكرر نداءه لأبيه... تسخر من ذعره... تهزأ من آدميته... تقلد ما يجعله بشرًا.

تناهى إلى مسامعه صراخ مصيلحي فانكمش على الأرض يبكي بلا حياء وهو يراه أمامه في منتصف الساحة يتم تقطيعه إربًا، كانت الحشرة شبيهة الصبي فوق ظهره تنشب فيه أطرافها المدببة كثيفة الشعر بينما كانت الرأس ملتفتة إلي غريب بزاوية «١٨٠» درجة، الوجه شبيه الإنسان اليافع والفم الواسع المبتسم كان كفيلًا بجعل شعر غريب يشيب.

ثم شعر بظلال تنفصل عن سوادها حول الساحة، تدب فيها الحياة... وتقترب منه، من كل اتجاه، ظهرت من خلف الخيام وبين العربات بينما كانت الخيول تصهل بذعر في الخلفية، تقهقر غريب لا إراديًا زاحفًا على مؤخرته ثم نظر خلفه ليرى داخل فتحة الخيمة مشهدًا يفوق أقوى كوابيسه.

فقد كانت الحشرة الآدمية التي كانت المرأة المتحدة بالسواد، رابضةً فوق أبيه، وقد التهمت النيران أطراف جناحيها وحرقت

الشعر المنتشر على جسدها، رآها تغرز الذَّنَب العملاق الذي يخرج من مؤخرتها في صدر أبيه، الذي كان يرتعش وينتفض كأن به مسًا.

لكن رغم ما كان يمر به من عذاب، فقد التفت إلى ابنه... وقال:

-اجري يا وَلدي.

وكان هذا ما فعله غريب بالضبط، صرخ بكل كيانه وهو يركض بكل ما أتاح له جسده الهزيل بينما صرخت المرأة بصوتها الحشري الرفيع:

«اجري يا ولدي!»

ركض بين أشجار قديمة وظلال تتمدد لتلتهمه.

ركض متفاديًا من أو ما يطير حوله كالهاموش الذي ينجذب للنور، متفاديًا أذرع مشعرة وأفواه مشوهة.

حفر في ذاكرته مشاهدَ لم يكن لبشر أن يروها، ولو فعلوا لما صاروا بعدها بشرًا.

وربما هذا ما حدث له بالضبط.

(9)

شردت بعيدًا، أفكر.

تخاريف أم حقيقة؟

ثم إن الشخصية التي حكى عنها مرسي بعيدة كل البعد عن الحلاق الرزين الذي قابلته، ربما كانت حكاية حلاق آخر؟ «كلنا واحد»، هكذا قال لزينة، ما معنى هذا الهراء؟

انتبهت للعم تؤ الذي أنهى حكايته قائلًا:

-بيقولوا السواق اللي حكى القصة دي اختفى بلا أثر... مش اختفاء عادي، لأ، ده حتى اسمه نفسه اتنسى، وكأنه لم يكن. ولا حد فاكره ولا فاكر شكله ولا فاكر أي حاجة عنه، مفيش غير القصة نفسها، هي اللي فضلت.

انتصب شعر جسدي كله من هول ما سمعت، لكني احتفظت برباطة جأشي بصعوبة وأنا أقول:

-يعني بيحصله هو بس؟ مش لحد تبعه؟

رمقني لوهلة بعينيه الضيقتين كأنه يحاول أن يعرف إن كنت جادًا في سؤالي أم أهزأ به.

-أهي حكايات يا هندزة السواقين بيتسلوا بيها، أومال إنت فاكر بنقضي ساعات على الطريق إزاي؟ متاخدش في بالك، كل كار وله أسراره، المهم إنك متجربش، ولو عملتها وشفت حاجة من دي يبقى تسمع الحكاوي لغاية آخرها.

-ولو ما سمعتهاش للآخر؟

سألته بعد أن بلعت ريقي بصعوبة ليجيبني وهو ينهض لنكمل جولتنا:

-يبقى تستحمل اللي هيعمله الغريب.

-راقبته وهو ينهض ليجلس أمام مقود السيارة ويشعل المحرك ببطئه المستفز، شردت مرةً أخرى في نقطة في غاية الأهمية: هل تعتبر هذه الحكاية الخامسة؟

-يا لغبائي!

***

خالف القدر ظنوني ولم يحدث أي من السيناريوهات الكابوسية التي توقعتها، توالت الأيام كالطلقات، وهذا لأن العمل قد انضغط واقترب موعد تسليم المشروع، زادت ساعات العمل وتقلصت تلك التي كنت أقضيها مع زوجتي، توقعت أن تغضب أو تعاتبني لكنها كانت مسالمة كما لم أرها من قبل، أعود متأخرًا لأجدها نائمة، والبيت في حالة من الفوضى والقذارة لم أكن أتخيل أن تكون في بيت زينة البطلة الرياضية صاحبة الشخصية الإيجابية.

استسلمت زينة تمامًا، أوقفت التمرينات وفقدت الشغف بالبطولات حتى أصبحت لا تجيب من يتصل بها من زملائها في الفريق الرياضي، ثم بدأت تقوم بتصرفات غريبة، تدق على الأبواب قبل دخول الغرفة، أسمعها تكلم نفسها كأن هناك من يعيش معنا ولا أراه، تلوك شعرها لا إراديًا، وفي أحيان قليلة كنت ألمحها تعض يديها.

-زينة، كلمي أبوكي.

قلتها لها ونحن نتناول العشاء في صالة المعيشة، فلم أكن أستطع أن أسكت أكثر من هذا، بالأخص حين لاحظت البقع التي لطخت ثيابها لأيام متتالية.

«زينة كلمي أبوكي».

هكذا كررت مقلدة إياي في استهزاء كأنها طفلة، تجاهلت سخافتها ووضعت الملعقة في طبقي وصمتُ منتظرًا ردها، بحلقت في وجهي في تحدٍ وهتفت:

-لاء.

قالتها بكل عناد وهي تلوك الطعام بلا شهية أو حماس، هززت رأسي رافضًا ما يحدث، فقد كانت تذوي أمامي كل يوم، تتلاشى ببطء، كنت مدركًا أن كبرياءها يمنعها من الاتصال بأهلها، وهو ما يقتلها من الداخل، يقضي على ما تبقى من ثقتها بنفسها، وخصوصًا بعد معرفتها بعدم قدرتها على الإنجاب، لكن ما كان يحدث لها يفوق كل هذا، هناك خطب ما بها وهو ليس كبرياءً أو حزنًا.

نهضت صائحًا:

-البسي يا زينة، هنروح لأهلك.

هنا عادت زينة التي أعرفها، لجزء من الثانية، عادت لتنتفض واقفةً وتفصل الموضوع بشخصيتها الكاسحة.

-فتحي، لو إنت شايف إن جوازنا كان غلطة يبقى يلا نروح لبابا

نعتذرله ونقدم فروض الطاعة.

علقت اللقمة في حلقي وتاهت مني الكلمات وأنا أحدق بوجه زينة المستدير، تسمرت أمام عينيها الواسعتين اللتين تطلان عليّ بحدة من وراء نظارتها التي تحتل نصف وجهها، ظللنا على هذا الوضع لثوانٍ قليلة حتى فرضت زينة وجهة نظرها وغادرت منتصرةً كالعادة.

***

اضطررت أن ألجأ لبواب العمارة المقابلة، رمضان الشهم ضخم الجثة أجش الصوت، كي يسمح لابنته ذات الثلاثة عشر ربيعًا أن تأتي يوميًا لتنظيف الفوضى الجهنمية التي تخلفها زينة ورائها، تغاضيت عن المبلغ الخرافي الذي طلبه مني رمضان «الشهم» بل وتغاضيت أيضًا عن مصادفة اسم ابنته التي اكتشفت أنه «نجية»، فمأساتي كانت أكبر بكثير.

وانتقلت الدنيا من سيء إلى أسوأ، حتى جاء يوم تسليم المشروع، غادرت يومها بصدر منقبض مصحوبًا بنظرات نارية من زينة، نظرات شعرت بلهيبها يلفح مؤخرة رأسي، فكرت في معانقتها لكن اتساخ ملابسها وقذارة شعرها منعاني من الاقتراب منها، ولا بد أنها شعرت بي، فقد أغلقت باب الشقة في وجهي بكل عنف حتى كادت أن تخلعه من إطاره.

كنت قد تعودت على نظرات الناس التي تتابعني في كل مكان، موقنًا أنه تأثير حكايات غريب، وأمضيت اليوم شارد الذهن، كل تركيزي منصب على حياتي التي كانت تنفلت من بين أصابعي، كنت

أريد أن ألملم شتات نفسي وأمسك بزمام الأمور، لكن كل شيء كان ضدي.

تذيلت المجموعة رفيعة المستوى التي جاءت لتفتتح المنتجع السكني/التجاري، وتفكيري كله في زينة، وبدا لي أنني غادرت البيت بجسدي فقط، المهندس الاستشاري والمالك ورئيس مجلس إدارة شركتنا المنفذة ومدير المشروع، كنا ننتقل من مبنى لآخر بسيارات الشركة الفاخرة بينما كان نصيبي نفس الكرسي في السيارة النقل بجوار العم تؤ، الذي سألني:

-مش هتنزل معاهم يا باشمهندس؟ أهو نرتاح منك شوية.

بحلقت فيه للحظة وقد اتضح لي أنه صديقي الوحيد، الشخص الوحيد الذي سمحت لي علاقتي بزينة الاحتفاظ به.

-ليك في الستات يا عم مرسي؟

نظر إليّ باستنكار ورفع شفته العليا ممتعضًا ليحتك شاربه الفخيم بفتحتيّ أنفه مما جعله يعطس، انتظرت حتى تعافى من العطسة التي رجّت السيارة نصف النقل والتفت إليّ قائلًا:

-تؤ، أومال ليا في إيه لا مؤاخذة؟

-مش قصدي، يعني بتفهم فيهم؟

-ما تفسر كلامك يا فندي، تؤ.

-يا عمنا «قلت في صبر»، يعني بتفهم بيفكروا إزاي، بيزعلوا من إيه، نصالحهم إزاي، حاجات من دي.

هنا حصلت المعجزة، ابتسم العم تؤ، للمرة الأولى منذ بدء علاقتنا المملة تنفرج شفتاه عن ابتسامة، لا ليست فقط ابتسامة، بل أكاد أجزم أني رأيت أسنانه، قبل أن يجيب هازئًا:

-أفهم بيفكروا إزاي؟

ثم صدرت منه ما يمكن لأحدهم أن يصنفها كضحكة، شهقة خافتة اهتز معها صدره وانحشر شاربه بين شفته وأنفه ليظهر صف أسنانه العليا.

-فيه إيه يا عم تؤ؟ إيه اللي بيضحك في اللي قلته مش فاهم؟

ذابت ابتسامته بغتةً وانقلبت «سحنته» لتعود «مكرمشة» كما عهدتها وهو يقول:

-يا فندي محدش بيفهم النسوان.

-يا عم أنا قصدي...

قطع حديثنا وصول رسالة على هاتفي فالتقطه لأرى أنها من زينة، رسالة صوتية، وضعت الهاتف على أذني لأسمعها ثم قطبت حاجبيّ مستغربًا، وأعدت تشغيلها، وما أن فعلت حتى أخفضت الهاتف لأصيح في عم تؤ.

-اطلع على البيت يا مرسي، بسرعة.

-خير يا باشمهندس؟

قالها بكل برود وهو يقوم بتشغيل المحرك ليستيقظ الوحش، لم أجبه، وعضضت على شفتي السفلى قهرًا وندمًا، والكلمة التي

سمعتها في الرسالة تكاد تصيبني بالجنون، الكلمة التي همست بها زينة بصوت كالفحيح.

«شمس».

***

بلغت عمارتي لأجد الكهرباء مقطوعة، وكان هناك حشد صغير يقف أمامها، وما أن نزلت حتى هجم عليّ رمضان البواب عريض المنكبين، والد نجيّة الخادمة.

-بِتّي نجية فين يا باشمهندس؟

-نجية؟ مالها نجية؟

هكذا سألت بينما كان بقية الجيران يتهامسون وينظرون إليّ، تقدم رامي البقال ليأخذني بعيدًا عن الحشد ويقول:

-البت نجية منزلتش من عندكم من إمبارح يا باشمهندس، ورمضان طلع يسأل عليها المدام، وبيقول إنها صرخت في وشه زي ما تكون - لا مؤاخذة - ملبوسة و... هجمت عليه، في نفس اللحظة الكهربا قطعت فرمضان قصر الشر ونزل، ومن ساعتها وفيه أصوات عجيبة جيرانك بيسمعوها في الشقة.

-المدام حاولت تعضني يا باشمهندس.

هكذا هتف رمضان وهو يرميني بنظرات نارية ويرفع كمه ليريني آثار أسنان واضحة على رسغه، آثار مميزة بها فراغ، التفتُّ لرامي البقال وقد تذكرت شيئًا:

-أصوات إيه بس؟ هو فيه حد ساكن في العمارة غيرنا؟

-اللي في العمارات التانية يا باشمهندس. استنى... أهوه... اسمع.

سكت الحشد وأرهف الجميع السمع، وأنا معلهم، وظهر الغناء واضحًا.

«يا شمس يا شموسة... خدي سنة الجاموسة... وإديني سنة جديدة... آكل بيها البسبوسة»

مذهولًا، نظرت لشقتي في الطابق السابع، يا إلهي... هناك حفل في بيتي، أطفال يغنون ويرقصون حتى ملأت الحي ضحكاتهم، هؤلاء ليسوا أية أطفال، بل من كانوا في قصة غريب الأولى، حتمًا هم، إن كل ما يحكيه يحدث، اللعنة! كيف يفعلها؟ كيف؟

-فيه حاجة مع مراتك فوق يا باشمهندس.

قالها رامي فالتفتُّ للحشد لأقول:

-حد يجي معايا!

تفادى الجمع نظراتي فالتفتُّ للعم تؤ لأجده يصغّر خده لي وهو ينفخ دخان سيجارته بكل برود.

-أنا جاي معاك.

هكذا هتف بي رمضان البواب، وانطلقنا معًا لنصعد العمارة الوحيدة التي انقطعت عنها الكهرباء.

***

سبعة أدوار أنهكتني وقضت على ما تبقى لدي من رباطة جأش، ظل رمضان ورائي، صوت أنفاسه التي كادت أن تنقطع يصدى في منور السلم المظلم، معزوفة مثيرة للأعصاب متناغمة مع أنفاسي المتلاحقة، وحين وصلنا بسلام، سمعنا الصوت واضحًا... غناءً وضحكاتٍ ونداءاتٍ طفوليةً.

مستعينًا بضوء هاتف رمضان، أخرجت مفتاحي وما أن وضعته في القفل حتى سكتت أصوات الأطفال، أنصت للحظة للسكون ثم دفعت الباب لأدخل الشقة المظلمة، رمضان في ظهري، لم يعد غاضبًا كما كان، بل متوجسًا، وما رأيناه لم يكن مبشرًا بالخير على الإطلاق.

النوافذ كلها كانت مفتوحة على مصراعيها تطل على مشهد الحي من حولنا، فعمارتي كانت الأعلى هنا، وكذلك الأبواب، جميعها مفتوحة، الظلال تتحرك في كل ركن، ظلال خلقتها أضواء المدينة بمساعدة خيالي الخصب، الفوضى تامة، كأن هناك إعصارًا قد ضرب شقتي دونًا عن غيرها، الأثاث متناثر، بعضه مكسور، الوسائد والملابس في كل مكان، أطباق، أدوات مطبخ، أحذية، حقائب، قطع زجاج ولوحات، لوحة سيريالية عشوائية تعمد صانعها ألا يبقي شيئًا في مكانه.

وفوق كل هذا بالطبع... الرائحة، التي - رغم الهواء العاصف الذي خلقته النوافذ المفتوحة المتقابلة - كانت أقوى مما كانت عليه عندما كانت الشقة محكمة التهوية.

-إيه الريحة دي؟

قالها رمضان بصوته الأجش وهو يسد أنفه بإصبعيه، تجاهلته

وبدأت بحثي عن زينة، أنادي عليها بأعلى صوتي، أخطو بحرص فوق الركام كي لا أكسر السليم منها، عينيّ وسط رأسي تنتبهان لأي حركة، ظلت أنفاسي مبهورة من هول المشهد، فأقل تفسير لما كان يحدث أمامي مرعب، وقفت في منتصف الصالة، أنظر إلى المطبخ إلى يميني، حيث لمحت تلًا من القاذورات والنفايات، في منتصفه تمامًا، تلًا يكاد يصل لنصف طولي.

-بسم الله الرحمن الرحيم.

قالها رمضان فالتفتُّ إليه لأجد وجهه قد صار أبيض وهو يشير إلى غرفة النوم إلى يسارنا هناك رأيت زينة، ملابسها قذرة غير مهندمة، شعرها أشعث، تمسك غطاء الفراش بيمينها، تقف أمام الفراش مباشرةً، تعطينا ظهرها.

-زينة.

ناديتها والقلق يلتهمني، فحكايات غريب كلها كانت تتجسد أمامي بكل تفاصيلها الكابوسية.

«زينة»، هكذا كررت زوجتي العزيزة ندائي لكنها لم تستدر إليّ، بل ظلت محدقة في الفراش أمامها، حاولت ابتلاع ريقي، لكن حلقي كان أكثر جفافًا وخشونةً من حجارة الصحراء.

تقدمت إلى زوجتي، قلبي يكاد ينفطر على حالها، في اللحظة نفسها التي سمعت فيها رمضان يتلعثم في الصالة خلفي:

-م... مين دول؟

لم أدرِ من يقصد ولم أهتم سوى بالمشهد المقبض أمامي، درت

حول زينة لأراها شاخصة البصر، التفتُّ للفراش لأجد عليه... حَمَلًا صغيرًا.

-يا هندزة... مين العيال دول؟

هكذا سمعت صوت رمضان الخشن المرتعش مع ضحكات أطفال يركضون ويلعبون في الصالة وهم يغنون: «يا شمس يا شموسة».

تقدمت من الفراش، غير مصدق، إنه خروف صغير... بقرن واحد.

-نجية! استني يا بت!

احترت في الانتباه إلى الكائن العجيب ذي القرن الواحد الذي يجلس على فراشي، ينظر إليّ بعين واحدة سليمة، أم إلى رمضان الذي لمحته يركض في الصالة إلى الحمام وهو ينادي على ابنته.

أعلم أنه لم يُجن، ولم أفعل أنا الآخر، أقنع نفسي أن لا شيء مما نراه حقيقي، لكني أيضًا كنت موقنًا أن الجنون الذي يحدث لنا مصدره شخص واحد، حلاق صحة لا يشيخ، وعدني بسبع حكايات، ولم أصدقه، والمسكينة التي قارب عقلها على الذهاب هي من دفعت الثمن.

لكن لماذا يعاقبني؟

لماذا؟! ما الذي ارتكبته لأستحق كل هذا؟

«يا شمس يا شموسة».

غناء وضحكات طفولية جعلت أوصالي ترتعد.

«يا نجية استني! مين دول يا بت؟» هكذا سمعت رمضان يصيح.

وكان قراري حاسمًا.

أمسكت زينة من ذراعها، وما أن فعلت حتى انهارت بين أحضاني مغشيًا عليها، حملتها وخرجت من الغرفة، من الصالة، من البيت كله... وأنا أنادي:

-يا رمضان! دي مش بنتك يا رمضان! تعال بقولك!

«يا شمس يا شموسة».

خرجت من الشقة واستدرت لأرى رمضان يقف وسط حلقة من الأطفال، يغنون وهم يضيقون الدائرة:

«خدي سنة الجاموسة».

يضحك رمضان ويدور حول نفسه سعيدًا بهم.

«وهاتي سنة جديدة».

وكان آخر شيء رأيته قبل أن أهرب بزينة هم أطفال فلاحون، تتراوح أعمارهم من «٨» لـ «١٣»، وهم يضيقون الحلقة حول رمضان حتى التصقوا به وهم يصيحون...

«ناكل بيها البسبوسة».

وبدأوا في عضه.

يلتهمونه.

يلتحمون به.

يسحقونه.

يصيرون معه كيانًا واحدًا، ماردًا أعرفه جيدًا، مسخًا عبارة عن أجزاء من بشر ضمهم إليه.

لن أنسى ما حييت هول صراخ ذلك الصعيدي الضخم الذي تحول لعويل من شدة ألم العذاب الذي كان يمر به، ظل يرن في منور السلم والعمارة والشارع حتى هربت من الحي كله...

في سيارة العم تؤ.

***

لاحظت أن الراديو الصامت قد تعطل على القناة «002»، فنظرت للعم تؤ في مرآة السيارة، الشك والغيظ يحرقان صدري، فما كان منه سوى أن علق بكلمة واحدة لا داعي لتكرارها، قبل أن يقول بقرف:

-أنا حذرتك يا هندزة، متبصليش.

أدرت وجهي لأنظر من النافذة وأنا أعض على شفتي السفلى، لقد كانت قصة العم تؤ هي الخامسة بالفعل، لكن كيف يفعل غريب كل هذا؟

حملت زينة حين وصلنا عمارتي القديمة بمصر الجديدة وصعدت بها إلى شقة والديّ القديمة، أزحت أظرف الخطابات المكدسة أمام باب الشقة، ودلفت بزينة لأضعها على فراش أمي قبل أن أصيب بتمزُّق، طلبت الصيدلية كي يبعثوا بمن يعطيها حقنة مهدئة ودرت في الشقة كالمجنون، تائهًا.

ما الذي يريده غريب مني؟ وما الذي سيستفيده لو سمعت حكاياته

السبعة؟

من هو في الأساس؟

هززت رأسي وعقلي يكاد ينفجر، أنا لا أحلم، ما الذي لا ألاحظه في هذه القصص؟ لا... بل ما الذي لا أراه في الصورة الأشمل؟

ثم طرأت لي فكرة مجنونة، بما أن كل ما يحدث منافٍ للعقل والمنطق، هناك شخص واحد يكرهني ويكره فكرة زواجي من زينة بما يكفي كي يلجأ لأعمال سفلية لتحويل حياتنا جحيمًا، شخص واحد فقط...

دكتور سراج.

انقضضت على هاتفي واتصلت به.

الرقم مشغول، حاولت مرةً أخرى، لكن نفس النتيجة، ثم بعدها بدقائق، نفس الشيء، لقد قام بحجب رقمي، حاولت الاتصال بأمها، نفس النتيجة، حاولت مع حسابه عبر منصات التواصل الاجتماعي، لكنني لم أجده، لا بد أنه حجبه عني هو الآخر.

ألقيت الهاتف على الأريكة المتربة التي تقابل باب الشقة، وألقيت نفسي بجوارها، أضحك هازئًا من سخف فكرتي، أعلم أنه لا يطيقني ولا يطيق سماع صوتي، لكنه لن يؤذي ابنته، جوهرة تاج حياته التي هو موقن أنه لا يوجد من يستحقها على وجه الأرض، ثم... أعمال سفلية؟ دكتور سراج جراح العظام الشهير؟ مستحيل.

انتبهت لحظتها لشيء جعل شعر مؤخرة رأسي يقف، أمسكت بالهاتف مرةً أخرى وولجت على حسابي الخاص بمنصة التواصل،

إلى خانة أصدقائي، والتي لم يكن بها سوى اسم واحد... «زينة نيو»، حساب زينة الجديد.

بحلقت في الشاشة، لعوانٍ طويلة وربما لدقائق، فاغر الفاه، كتمثال أصم، وبعد أن فشل عقلي في فهم ما يحدث نجحت في تحريك أصابعي لأتجول في حسابي، ولهولي وجدت أن جميع منشوراتي لا يوجد عليها تعليق ولا رد فعل واحد، كأنني كنت طيلة عمري وحيدًا في هذه الدنيا.

خرجت من تطبيق التواصل لأتصل بأحد زملائي وفتحت قائمة أرقام التلفونات على هاتفي لأجد... صفحة بيضاء ليس بها سوى اسم واحد «زينة نيو»، يا إلهي... يا إلهي...

نظرت للغرفة التي ترقد بها زينة، ما الذي يحدث؟

سأجن!

أمسكت الهاتف مرةً أخرى وولجت على محرك البحث لأكتب: «قطع طريق سبع مرات... أسطورة». انتظرت للحظة قصيرة قبل أن تظهر نتيجة بحثي، مصدر واحد فقط لمقطع على اليوتيوب اسمه: «القصة السادسة»، قطبت حاجبيّ الكثّين متعجبًا، هذا ليس ما بحثت عنه ولا يمت بصلة للكلمات التي كتبتها في محرك البحث.

نقرت الصورة لتقودني لليوتيوب حيث تضاعف فضولي ونقرت على المقطع لأستمع إلى صوت أعرفه جيدًا...

-في ليلة عاصفة استيقظ غريب من غفوة لم تدم سوى دقائق على من يهز كتفه، فتح عينيه ليجد «المزغود» سويلم ذا السبع

سنوات يبتسم له بفم يفتقد معظم أسنانه... ناطقًا «السين» و«الزاي» و«الصاد» «ثاءً».

انتفضت واقفًا كالملسوع، أحدق مذعورًا في شاشة هاتفي، قبل أن أنقر عليها بهستيريا كي أجعله يصمت.

إنه هو... هذا صوت غريب.

ألقيت بالهاتف على الأريكة ووقفت في مكاني مبهوتًا، أحدق به، ثم انقضضت عليه لأقرأ الجملة المكتوبة تحت المقطع بالإنجليزية: «سيظل الأمر يسوء قبل أن يتحسن في النهاية».

نظرت إلى غرفة أمي التي ترقد بها زينة ثم أطرقت مفكرًا، أغلقت عيني وهززت رأسي بأسَى، مدركًا أنه لا مناص، لا هروب من حكايات غريب السبعة.

شحذت كل حواسي، كي لا تفوتني تفصيلة واحدة، ونقرت على المقطع لأسمع صوته الناعم المستفز الذي صار أكثر ما أخشاه...

يقول...

السجينة

(10)

كانت الحرب الكبرى تلفظ أنفاسها الأخيرة، تلك التي كادت أن تنهي العالم وتبتلع كل شيء، ونصيب مصر من تلك الحرب لم يكن هينًا، جنود قتلى، ألغام انتشرت، اقتصاد انهار ومواقف سياسية أجبرنا عليها المستعمر واستمر تأثيرها لعقود، كانت مصر مشتركة مع الإنجليز في «حروب السنوسي» على الجبهة الغربية ومعظم الجرحى كان يُنقَلون إلى المستشفيات الميدانية أو العسكرية، أما الأسرى فكانوا يُنقَلون للكتائب والسجون العسكرية، المعروفة منها والسرية.

وكالعادة في مثل هذه الأوقات الصعبة، هناك من ينتعش معها حاله، الحانوتي والبنّاء وصانعو السلاح، وبالطبع هناك الطبيب، أو في مثل حالة غريب يكون «حلاق الصحة»، عندما يكون الطبيب غير متوافر أو باهظ التكاليف.

***

-معاك ثمنمية؟

بحلق غريب في ملامح سويلم المغطاة بطبقة دائمة من التراب لثوانٍ بدون فهم قبل أن يقرر أن ينهال عليه بالـ «فَلَكَة»، انتفض من جلسته على الأريكة الخشبية وسبّه وهو يبحث عن عصاه الرفيعة.

-فيه إيه يا بن الرف... ؟

-اتتنى يا عم غريب، جايبلك ثباين والله، بُث بُث.

قالها وهو يتراجع مذعورًا ويشير لاثنين من العسكر، شاويش يعرفه غريب جيدًا وجندي لم يره من قبل، يقفان بباب الدكان في حالة مزرية، زيهما العسكري لوحة من الطين والدماء وبقايا البارود، وعلى وجوههم إجهاد لا تصفه كلمات، وهناك شيء آخر في ملامحهم، خوف أو قلق، لم يدرِ أيهما.

غادر سويلم بعدها بأسرع ما مكنته ساقاه الهزيلتان وهو يقسم أنه لن يأتي مرةً أخرى بزبائن وأن غريب هو من جلبه على نفسه، اعتذر الأخير للشاويش هائل الحجم ذي الشارب الذي يغطي وجهه ودعاه للدخول.

-اتفضل يا شاويش زينهم.

-معلش يا أسطى غريب، الوقت مش في صالحنا، طاهر أفندي مصاب ومش هيستحمل أكتر من كده.

دارى غريب فرحته بصعوبة، فهو كان يريد أن يصبح المعالج الرسمي للواء العسكري الذي يتخذ من المنطقة الشرقية لمدينة العريش معسكرًا، وللسجن الذي سمع أنهم ينوون إنشاءه بالقرب منهم، ولهذا السبب تم وضع تمركز أمني قريب من بلدته، لتجهيز الموقع أمنيًا واليوزباشي طاهر هو قائد هذه الوحدة العسكرية والمسئول عن تمهيد المكان للمشروع والتعامل مع البدو.

أسرع غريب بجلب حقيبته الجلدية وارتدى البالطو الأبيض والطربوش وذهب معهم، امتطا الجنديان جيادهما العربية وركب غريب «بهتان»، حماره الأصيل، ليتضاءل حجمه بجوارهما.

في طريقهم للوحدة العسكرية عرف منهم غريب أن اليوزباشي طاهر وأفراد الوحدة كانوا هدفًا لغارة عنيفة من البدو الموالين للألمان، نصبوا له ولبقية الجنود فخًا محكمًا راح ضحيته معظم أفراد الوحدة إلا اليوزباشي طاهر، فُوجئ الشاويش زينهم - الذي كان في مهمة استكشافية مع الجندي عبد الكريم الذي يسير معهم وعريف واسع الخبرة اسمه سعداوي - عند عودتهم بأحد عشر قتيلًا واليوزباشي طاهر غارق في دمائه أمام مبنى الوحدة، على مشارف الموت.

هنا جعل غريب حماره العجوز يتوقف عن السير فسأله الشاويش زينهم:

-فيه إيه؟

كان غريب يعلم حدة الصراع الدائر في الخفاء بين الجيش والبدو بسبب الأرض - بالأخص ذلك السهل الممتد فوق أعلى تلال المنطقة - وأن كليهما لن يتراجع أو يتنازل للآخر عن شبر فيها، لكن ليس لهذه الدرجة.

-أنت مقلتليش أن الموقف بالخطورة دي، والبدو مشيوا ولا لابدين ورا الجبل؟ مفيش هزار مع البدو يا زينهم.

تبادل زينهم مع عبد الكريم نظرةً لم يفهمها غريب ثم تدارك زينهم نفسه قبل أن يتملك القلق غريب ويمنعه من المضي معهم.

-ولا لهم أي أثر، متقلقش.

لم يقتنع غريب بإجابة زينهم ولكن الموقف لم يكن يحتمل الجبن،

خصوصًا وأنه كان مقتنعًا أنها فرصته، لكنه لم يمنعه من إيقاظ ذهنه تأهبًا لما هو قادم، فهناك شيء غير مريح فيما سمعه، أحد عشر قتيلًا؟ لم يهاجم البدو الجيش المصري مباشرةً هكذا من قبل، وبهذا العنف، ما الذي فعله طاهر ليستثيرهم لهذه الدرجة؟

مهتدين بنور القمر، تركوا الطريق الصحراوي الذي يصل بين بلدان العريش بمحاذاة البحر وسلكوا ممرًا جبليًا ملتويًا صعد بهم حتى وصلوا لسهل شاسع من الرمال والصخور، حيث رأى أول الأشياء الغريبة، تلك اللافتات، ففي أنحاء متفرقة من السهل، لمح غريب لافتات عديدة بأحجام متباينة مكتوبًا عليها كلها: آيات قرآنية.

لم تستمر حيرته كثيرًا فقد انحنى الممر بهم يمينًا ليرى مبنًى خشبيًا من أربعة غرف وإسطبل خيل صغير بينهما بقايا سور دائري لبئر، تسطع مصابيح زيت فوق باب المبنى الخشبي والإسطبل وفوق ثلاثة أعمدة منتشرة حول الوحدة، وهناك سور شائك مثير للشفقة حول قمة التل نفسه يحيط بكل ما سبق، يعرف هذه الأرض جيدًا، فهي مركز صراع قديم.

لكن أهم ما في المشهد أمام غريب كان الجثث، ما لا يقل عن أجساد سبع جنود كانوا متناثرين في المساحة المفتوحة أمام مبنى الوحدة في أوضاع مختلفة، منهم الملقى على ظهره ومنهم من انكب على وجهه أثناء محاولة هروب، وهناك ثلاثة أجساد في وضع جلوس، أحدهم مستند على صخرة والثاني على عامود والأخير يستند على سور البئر المتهالك، وضعهم يُوحي أنهم كانوا يتكلمون معًا في لحظاتهم الأخيرة مما يعني موتة سريعة، سريعة بدرجة

مقلقة.

ترجل رفيقاه من فوق جيادهما وربطوهما في الأعمدة الخشبية التي تربط السور الشائك بينما نادى الشاويش زينهم:

-سعداوي!

ترجل غريب هو الآخر من فوق حماره بهتان والتقط حقيبته الجلدية من فوقه، وانتظر، لسعة البرد الخفيفة وصوت عويل الريح الخافت جعلاه يرتجف للحظة ونهق بهتان معترضًا، لكن غريب ربت على رقبته ليطمأنه ثم أحكم البالطو الأبيض حول جسده وهو يقول:

-متأكدين إن السبعة دول ميتين؟

نظر زينهم لما يشير إليه غريب وهز رأسه:

-وشبعوا موت.

-أوضاعهم عجيبة، ماتوا إزاي؟

-المهم طاهر بيه.

لاحظ غريب أن زينهم تفادى سؤاله فتجاهل الموقف ليسأل.

-طب إحنا مستنيين إيه؟

لم يجبه زينهم وبدا عليه الضيق من كثرة الأسئلة فزفر غريب تاركًا الرعشة تمر في جسده كله بعد أن تمكن منه هذا الشعور الغير مريح، تصرفاتهم مريبة والمشهد كله به علامات استفهام لا حصر لها، خبرته الطويلة في الحوادث والمعارك الأهلية والجراح جعلته دقيق الملاحظة سريع التحليل والتصرف، ففي أحيان كثيرة اضطر

لاتخاذ قرارات في لمح البصر كي ينقذ حياة مصاب أو منع إصابة من التفاقم، وما يراه أمامه لا يتسق مع قصة زينهم.

دار بنظره في التلال المحيطة والوادي أسفل منهم، لوحة من الظلام الدامس، بعد أن تكاثفت السحب لتحجب معظم ضوء القمر، دقق النظر في الممرات وبين الأحجار العملاقة، ثُرى، هل لا يزال البدو قريبين؟ هل يراقبونهم الآن؟

انتبه حين خرج لهم جندي ضخم حليق الرأس عريض المنكبين مشمر عن ساعديه والدماء تغطي زيه العسكري الكاكي، يعرفه جيدًا هو الآخر، سعداوي السوهاجي، صائد الذئاب، هذا الجرح الذي يشق عينه اليسرى علامة لا يمكن أن يخطئها.

رمق سعداوي غريب بنظرة ثاقبة بعينه السليمة قبل أن ينحني ليلتقط إحدى الجثث ويعود للداخل، أراد غريب أن يعلق بأنه هكذا يعبث بمسرح جريمة كما قيل له ذات مرة لكنه آثر الصمت، فلا وضعه ولا حساسية الموقف يسمحان بهذا، انتظروا لحظات أخرى تململ فيها غريب قلقًا من غرابة التصرفات وظل يتابع بكل انتباه دوامات الرمال التي يثيرها الهواء البارد وأنصت بتركيز لأقل صوت، لعل البدو يتسللون إليهم في هذه اللحظة. لكن كل ما تناهى إلى مسامعه كانت أصواتًا خافتةً تأتي من داخل الوحدة، كلامًا غاضبًا غير مفهوم وصوت قعقعة حديد.

ما الذي يحدث بالداخل؟

ثم خرج سعداوي مرةً أخرى ونفض آثار الدماء والغبار من على زيه الميري قبل أن يشير لهم بالدخول، عبر ثلاثتهم السور الشائك

من فتحة به وساروا وسط أرض المعركة المريبة التي خلفت ورائها هذا العدد من الجنود ولم تخلف بدويًا واحدًا، قبل أن يصلوا لباب الوحدة.

دخل زينهم وورائه عبد الكريم بينما تذيّل غريب المجموعة واستغل هذا في مسح المنطقة حوله سريعًا وفحص الأجساد من بعيد، دوّن في ذهنه ملحوظةً هامة: معظم الجراح في الظهر أو ذبح في الرقبة.

لقد قُتلوا غدرًا.

-ادخل يا غريب.

دفع الباب الخشبي ودخل لصالة مربعة بطول ستة أمتار تنتهي بممر مظلم به الغرف الثلاث الملحقات، على يمينه مكتب معدني وبضع كراسٍ متناثرة ومنكفئة على وجهها، بعضها مكسور، وهناك نافذة عريضة مفتوحة على مصراعيها خلف المكتب، على يساره ثلاث أرائك خشبية، إحداها مشطورة من النصف، ودواليب مفتوحة بها أسلحة: سيفان وبندقية وبضعة خناجر والباقي أماكن شاغرة لأسلحة مفقودة، لكن الأهم من كل هذا بالطبع كانت الجثث المنتشرة في المكان، لقد امتدت المعركة إذن إلى داخل الوحدة.

-أنا مش فاهم إيه اللي حصل هنا؟ لو البدو هم اللي عملوا كده، فين جثتهم؟ مش معقول مفيش فيهم إصابات.

-منعرفش حصلهم إيه، بس هم البدو، ده أكيد، كانوا ضد وجودنا هنا من الأول، ودافعوا عن أرضهم باستماتة ورفضوا أي تعويض،

الناجي الوحيد من المذبحة دي هو اليوزباشي طاهر، وحالته...

هكذا قال زينهم قبل أن يشير للممر الذي وقف به العملاق سعداوي.

-لازم تشوف بنفسك.

قاده بعدها للممر الذي يزيد طوله عن الأمتار الستة ثم للغرفة اليمنى في أوله، لاحظ غريب أن ضوء المصباح الرابض فوق المكتب خلفه بالصالة الرئيسية لا يصل إلى نهاية الممر أمامه، لكنه رأى انعكاسه على قضبان معدنية، إنها التخشيبة، يعلم أنها هناك، لم يهتم بهذه التفصيلة البسيطة لانتباهه للغرفة إلى يساره والتي كان سعداوي يكدس فيها أجساد الجنود ويجمع بنادقهم في ركنها، الدماء واضحة على الخناجر المتصلة بها.

تمالك غريب نفسه باحترافية ودخل الغرفة على يمينه ليجد الضابط طاهر ذى الثلاثين ربيعًا راقدًا على الفراش مغمض العينين والألم واضح على ملامحه الأرستقراطية المنمقة، كان يعضُ على شفتيه وشاربه الرفيع ويضغط على جرح بجانبه الأيمن، يئن بخفوت.

وضع غريب حقيبته الجلدية على المكتب الخشبي الصغير والذي يقبع فوقه دفتر ملطخ بالدماء وجلس بجوار الفراش الذي يرقد عليه طاهر، فوق الفراش لاحظ سلسلة مفاتيح ملطخة بالدماء، تجاهلها وقام برفع يد الأخير برفق ليفحص جرحه، لكن ما أن فعل حتى انتفض طاهر وصرخ مذعورًا، جاحظ العينين، جفل غريب هو الآخر من الصرخة التي بدت له صرخة هلع أكثر منها صرخة ألم ونظر

لزينهم الذي فسر له:

-من ساعة ما لاقيناه غرقان في دمه على كرسي المكتب الصغير ده وهو على دي الحالة، بينتفض من أقل لمسة، بس هو أضعف من إنه حتى يتكلم، عمومًا هنسيبه في رعايتك، ولو عُزت حاجة نادي على سعداوي، أنا وعبد الكريم هنروح لقيادة الفرقة، لازم يعرفوا اللي حصل ويبعتوا تعزيزات، ومتقلقش، سعداوي هيفضل معاك.

ينهض غريب معترضًا.

-لا يا أبو خال، مش ده اللى اتفقنا عليه، ولو البدو رجعوا؟

برم زينهم شنبه المهول بأصابعه وقال بنبرة حاول أن تكون حازمة:

-ولو ده حصل فكرك هنعرف نقف لهم إحنا الأربعة؟ الإمدادات هي الحل الوحيد.

-الحل الوحيد هو إننا ناخد طاهر أفندي وننزل البلد عندي.

-طاهر أفندي مش هيستحمل، نزف دم كتير أوي، ولو سيبنا الوحدة هنتحاكم، هتستنى هنا مع طاهر أفندي وتقوم باللازم لغاية ما نرجع بالمدد، معاك سعداوي ومعاك سلاح، مات الكلام.

-والأبواب والشبابيك دي هتحمينا؟

تبادل زينهم مع سعداوي نظرةً خاطفةً قبل أن يستدير ويغلق الباب خلفه منهيًا الحوار وتاركًا غريب وحده مع الضابط طاهر، أطرق غريب مفكرًا في محاولة للسيطرة على قلقه وعقله يفكر في

طريقة للهروب من هذا المأزق، قبل أن ينتبه لأنين طاهر، وضع يده على جبهته فوجده محمومًا، جلس بجوار الفراش وأخرج قماشًا طبيًا وقام بسكب مياه باردة عليه كان قد جاء ببعض منها ثم التقط قنينةً بها تركيبة خاصة تعلمها من والده ستريحه من الألم وتساعده على النوم، أعطاه بضع قطرات ثم انتظر أن يخلد للنوم كي يستطيع أن ينظف الجرح بسهولة وبدون أن يجعله الألم والخوف كثير الحركة.

لم تمر بضع دقائق وكان طاهر قد راح في سبات عميق، قام غريب بتنظيف الجرح، الذي كان شديد العمق، ثم قام برتقه بخيط طبي ووضع عليه ضمادةً نظيفةً بها مطهر، عملية بسيطة استغرقت أقل من الساعة، مرت دون أن يشعر بها، لكن حالما انتهى حتى انتبه إلى الهدوء الذي يحيط به.

خرج من الغرفة ونظر إلى الصالة ليجد أن مصباح الزيت قد خَفُت نوره، وقبل أن يذهب ليملأه سمع:

-طَيْبتُه؟

جفل والتفت لمصدر الصوت الأجش القادم من يمينه ليجد سعداوي في نهاية الممر المظلم الذي يمتد بطول ستة أمتار حتى باب عبارة عن قضبان حديدية، يجلس سعداوى على بعد مترًا من القضبان، مستندًا بظهره على الحائط.

-قاعد في الضلمة ليه؟

-بحرس التخشيبة.

-هو فيه حد محبوس عندك؟

سأله وهو يتقدم إليه لكن سعداوي رفع بندقيته وصوبها ناحيته مزمجرًا بلكنته الصعيدية:

-إجف مكانك!

رفع غريب يده تلقائيًا وتسمر مكانه.

-السلاح يطول يا سعداوي، إنت عصبي دايمًا ليه كده؟

صوت صليل معدني خافت يأتي من وراء سعداوي، كأن هناك سلسلة تتحرك، لكن الضوء كان لا يصل لأبعد من متر خلف القضبان، سواء من مصباح الصالة أو المصباح المستقر على أرضية غرفة طاهر الذي خرج غريب منها لتوه.

-مين محبوس وراك؟

-خليك فى حالك.

تراجع غريب خطوةً لكن سعداوي ظل مصوبًا سلاحه ناحيته في تحفز، ثم سمع غريب صوت الجلجلة الخافتة مرةً أخرى فسأله:

-هو اللي جوه له علاقة باللي حصل هنا؟

جذب سعداوى زناد البندقية ورفعها ليصوبها إلى وجه غريب ليدرك أن تهديده حقيقي.

-الحقني...

تسمر غريب مكانه حين سمع هذا النداء الخافت، صوت أنثوي

ضعيف، في نفس اللحظة رأى فيها الظل، تلك الحركة الخفية خلف سعداوي، تقهقر في حذر ليدخل غرفة طاهر واستند على الباب مفكرًا للحظة قبل أن يسأل بصوت مرتفع:

-هي البت دي تخص البدو؟ هي السبب إنهم هاجموا الوحدة دي؟

لم يجبه سعداوي فاستطرد:

-اللي بيحصل هنا مُقلق يا سعداوي، حتى لو البدو موالين للألمان زي ما بتقولوا، ممكن يساعدوهم، ينقلوا لهم معلومات أو أسلحة، لكنهم مش هيهجموا على وحدة عسكرية بالطريقة دي، دي سابقة محصلتش قبل كده.

لم يأته سوى صوت الرياح بالخارج والتي ازدادت حتى بدأت تضرب النوافذ والحوائط بعنف وتعوي من بين الشقوق.

-كانوا عايزين ياخدوها، مش كده؟

في نفس اللحظة سمعوا فيها صهيل الخيل بالخارج ونهيق بهتان المزعج، انتفض سعداوي واقفًا وركض عابرًا الممر أمام الغرفة التي يقبع بها غريب متجهًا إلى الصالة، فتح الدولاب وعاد إلى غريب ببندقية، أعطاه إياها قائلًا:

-البدو رجعوا، اقفل الباب ورايا واحمى طاهر أفندى، متفتحش باب الوحدة لحد، هخبط عليه تلات مرات علشان تعرف إنه أنا.

أنهى الأمر ورفع بندقيته متأهبًا ثم ذهب ليطفئ مصباح الزيت الرابض فوق المكتب بالصالة، تجمدت يد غريب الممسكة بالبندقية بعد أن أصبح الخطر حقيقيًا، وبالأخص حين رأى الدم الجاف على

النصل المتصل بمقدمة البندقية، أمال برأسه لينظر خارج الغرفة ليجد أن سعداوي قد أغلق النوافذ ووقف محتميًا بالباب، أشار مرةً أخرى لغريب بعنف كي يفعل ما أمره به فانطلق ليغلق بقية النوافذ وانتظر حتى انسل سعداوي خارجًا مستترًا بالظلام متجهًا للإسطبل ليرى ما الذي أثار الخيول.

أغلق غريب باب الوحدة وراء سعداوي بالمزلاج وعاد لغرفة اليوزباشي طاهر ليجلس على أرضيتها الخشبية، مستندًا على الفراش، لكنه لم يطفىء المصباح الأخير، لم تواتيه الشجاعة أن يربض في الظلام.

جاءت بعدها لحظة صمت طويلة، حاول غريب أن يتتبع بأذنه خط سير سعداوي أو استنتاج ما يفعله لكنه لم يسمع سوى صرير الرياح الباردة بالخارج وهي تحاول أن تعتصر بين شقوق الجدران الخشبية والنوافذ غير المحكمة.

طال الهدوء حتى صار مزعجًا فجاءت لغريب فكرة، هو الآن وحده وبإمكانه حقن الدماء لو أطلق سراح الفتاة ويمكنه بعدها أن يهرب بمنتهى السهولة، لكنه عدل بالطبع عن هذه الفكرة، فهي ستدمر حياته، على الأقل يمكنه أن يداويها، فهو يشعر أنها ليست بخير، وسيخفف هذا من غضب البدو لو نجحوا في الوصول إليها ووجدوا أنها لاقت معاملة لائقة، وبهذا سوف يضرب عصفورين بحجر واحد: يمكنه أن يحقن الدماء وفي نفس الوقت سوف يرفع من منزلته عند البدو في المنطقة، وفي نهاية الأمر، هذه مهنته.

أخذ قراره ونهض ليخرج من الغرفة بحذر، انحني كي يتفادى

الطلقات لو جاءت عشوائية من الخارج مخترقة الحوائط الخشبية، وقف بين الغرفتين ودقق النظر في الجثث، ضوء المصباح الرابض بجوار فراش طاهر ضعيف لكنه كافٍ كي يتأكد أنه لا يوجد من بينهم بدو، كم كان هذا عجيبًا.

هل أوقفوا إطلاق النار كي يجمع كل فريق جرحاه وقتلاه، هدنة معلّا؟ ولكن أي إطلاق نار؟ لا يوجد آثار للرصاص على أي من القتلى أو الجدران، كأنها كانت معركة بالخناجر والسيوف فقط، وهذا أعجب، لماذا لم يستخدم الجنود بنادقهم؟

هز رأسه فاقدًا الأمل في العثور على تفسير ثم سلك الممر حتى وصل للقضبان في نهايته، المكان هناك كان أكثر ظلامًا من بقية الوحدة وقد صار المصباح الراقد في غرفة طاهر هو الوحيد في الأربعة غرف، وكان يخلق ظلالًا أكثر مما ينشر ضياءً.

ما أن وصل غريب عند القضبان حتى سمع صوت السلسلة تتحرك مرةً أخرى فتوقف على بعد خطوة منها ودقق النظر، زنزانة صغيرة مظلمة إلا من شعاع عريض من نور القمر الفضي الخافت يسقط من نافذة عالية ليصنع مربعًا في منتصفها، وهناك من يرقد في الركن القصي، شخص ما، هذا ما توحي به هيئته المبهمة، وصناديق خشبية وبضع قوارير هنا وهناك، هذا كل ما استطاع أن يستبينه.

ثم وقف الشخص، ببطء، لتتقلص أحشاء غريب.

-فكني يا غريب.

تسمر مكانه حين جاءه الصوت الأنثوي بنفس النبرة الضعيفة

المرتعشة.

-ع... عرفتي اسمي منين؟

سألها فشعر أنها اعتدلت في جلستها، أو هكذا أوحى إليه صوت السلسلة، أيًا من كانت تلك السجينة، فهي مصفدة بالسلاسل، والسلاسل نفسها مرتبطة بحلقة متصلة بالأرض بطريقة ما، لكنه غريب عنها بكل تأكيد، ربما كان هذا مقصدها، أو ربما سمعت أطراف الحديث، كلاهما تفسيران منطقيان، اقترب منها ليسألها:

-إنتى رهينة هنا؟

التقطت أنفه الرائحة النفاذة مرةً أخرى، هذه رائحة صدأ، هو موقن من هذا، لكنه تجاهلها حين سمع آهاتها الواهنة فألصق وجهه بالقضبان ليهمس:

-العساكر خطفوكي، وعايزين يتفاوضوا مع أهلك، مش كده؟

-فكني يا غريب.

هكذا كررت بآلية، صوتها جاف مبحوح ونبرتها كأنها على شفا الإغماء من الضعف، لا بد أن يتصرف، لو أراد أن ينقذها وينقذ الموقف، والآن، تحسس قفل القضبان المعدنية وتذكر المفاتيح التي فوق فراش اليوزباشى طاهر.

انطلق لغرفة الأخير والتقط المفاتيح المعلقة بعد أن ألقى نظرةً سريعة عليه، لا يزال في نوم عميق، استدار عائدًا للزنزانة وبدأ يجرب المفاتيح في قفلها.

وفي خضم محاولاته لمح شيئًا بطرف عينه، شيئًا ارتعد بسببه وهرب الدم من وجهه: رأسًا يطل عليهم من النافذة العالية بالتخشيبة، وما أن التفت إليه حتى انخفض الرأس ليختفي عن ناظريه، ثوانٍ قليلة مرت وهو ينصت بإمعان لما يدور حوله بالخارج، ثم سمع خطوات الأقدام فوق المبنى، خطوات حادة كأن هناك من يمشي فوق سطح المبنى بحذاء ذي كعب عالٍ.

همس للفتاة - صاحبته الوحيدة -:

-مين فوق السطح؟ أهلك؟

لم تأتِ بأي رد فعل سوى أن انكمشت على نفسها وحدقت في النافذة كأنها تنتظر مخلصها، شعرها أشعث يغطي معظم وجهها المتسخ دقيق الملامح، جسدها ضئيل كأطفال المجاعات وكذلك ملبسها، مجرد أنسال بالية تظهر عظامها واضحة من تحتها، رق قلب غريب لحالها، فلم يكن يعلم إن كان بها خطب ما غير حبستها وسلسلتها بتلك الطريقة المهينة، لكنه شعر أنه لا طائل من الحديث معها، فاستدار ليواجه باب الوحدة وهو يغمغم:

-هو فين سعداوي؟ البدو مش هيسكتوا قبل ما يحرروا البت دي.

حك فروة رأسه الأشعث والتفت ليواجه القضبان.

ثم جاء صوت من ورائه، أحدهم كان يحاول فتح باب الوحدة، هنا شعر بمدى خطورة الموقف، أينعم هو معروف في البر كله، للصعايدة والفلاحين والبدو، لكنه لن يحميه من انتقام أهل الفتاة لو شعروا بتواطئه مع الجنود في خطف ابنتهم.

-سعداوي؟

هكذا هتف باستحياء مدركًا أنه ليس من ينادي عليه، فبالتأكيد لم ينسَ سعداوي الدقة التي اتفقا عليها، في نفس اللحظة شعر بهم يحيطون بالمبنى الخشبي الضعيف، يسمع خطوات أقدام وهمس خافت، هل من الممكن أن يقتنعوا لو أخبرهم أنه هنا لمعالجة الجرحى فقط وليس مواليًا لأحد؟ هكذا تساءل شاعرًا أن شجاعته تنساب منه بعد أن شعر أن مكروهًا قد أصاب سعداوي، القوة الرادعة الوحيدة لديه.

وهكذا وجد غريب نفسه في موقف لا يُحسد عليه، كأن الدنيا تختزن غرائبها خصيصًا له، هو الآن في مبنى خشبي منعزل فوق تل صحراوي بعيد عن أهله وناسه، مبنى يحيط به بدو غاضبون يصطادون الجنود الواحد تلو الآخر، والآن هو مع الناجي الوحيد والذي ينتظر دوره كي يلقي حتفه متأثرًا بجراحه.

زاحفًا على أطرافه الأربعة، ومتخذًا الجدران ستارًا، أطفأ غريب المصباح الرابض في غرفة طاهر أفندي كي لا يتمكن أحد من رؤيته أو استنتاج مكانه لو تلصص عبر الشقوق، يعلم أن الجنود قد قُتلوا بسيوف أو خناجر لكنه لا يأمن أن يكون هناك بندقية مع أحد الأعراب وربما ستهتدي طلقاتها إليه.

استند على الحائط ليلتقط أنفاسه، وأنصت.

لكنه لا يسمع شيئًا، فقط أصوات الخطوات حول المبنى، وفوقه، كأن هناك العشرات من البدو يحكمون حصار الوحدة في صمت تام، فكر أن ينادي على سعداوي مرةً أخرى لعل ظنه يخيب ويكون

العريف العملاق لا يزال حيًا لكنه آثر الصمت كي لا يستنتج أحد مكانه ويرديه ميتًا برصاصة عبر الجدار الخشبي الهين.

ثم ارتج البيت... حرفيًا، كأن من بالخارج قاموا بدق الجدران بكفوفهم مرةً واحدة وبتوقيت مثالي، زحف خارج الغرفة ليجول ببصره مذهولًا في الصالة ثم الممر، الوضع كما هو، ثم وقعت عينيه على الزنزانة، هناك رأى الفتاة منكمشةً على نفسها، تضم أرجلها الهزيلة إلى صدرها وعينيها تلمعان من بين خصلات شعرها الأشعث، تحدق به، هذا كل ما استطاع تميزه مستعينًا بنور القمر الذي انسل من النافذة العالية ليصنع ذلك المربع المنير في منتصف الزنزانة، لا مناص، لا حل أمامه سوى:

-تعالوا وخدوها!

هكذا هتف غريب بأعلى صوته، وانتظر الإجابة، لكن لا شيء، صمت مطبق.

-محدش فينا هيعترضكم!

قالها كي يوحي لهم أن هناك عددًا من الجنود معه كي لا يستهينوا به، تقلصت معدته بعد أن قُوبل عرضه بنفس النتيجة، سكون تام، هنا أسقط في يد غريب وبدأت شجاعته تخونه شاعرًا أن موقفه يسوء، فبالرغم من أنه قد رأى الكثير ومر بمواقف مرعبة وغريبة في حياته، لكن الغموض الذي يحيط به الآن ليس له مثيل، مثير للخيال أكثر من لو كان الخطر حاضرًا متجسدًا أمامه.

لماذا لا يجيبونه؟

ثم تحفزت عضلات جسده كلها حين عاد الدبيب، دقات خافتة بالمئات على جدران الوحدة من الخارج، كأنهم قد قرروا إرهابه بهذه الطريقة العجيبة، عجيبة لكنها مؤثرة للغاية، فهي بلا تفسير، وتجعله يشك في هوية من بالخارج، لو كانوا البدو لماذا لا يطالبون بالفتاة؟ لماذا لم يستجيبوا له حين دعاهم كي يأخذوها.

لا، هناك شيء يحدث غير ما يبدو.

ثم توقف الدبيب مرةً واحدة وعادت الخطوات تحوم حول البيت، وفوقه، وتزداد سرعتها باطراد.

شعر بارتجاف الفتاة حتى دون أن يلمسها، تنقله الأرض الخشبية وتجعله يرتعش معها، رغم المسافة التي تفصلهما، لكنه لن يسمح للذعر أن يتمكن منه، فهو يعلم أنها ستكون نهايته، حين يتخلى عنه عقله وتسيطر العشوائية على أفكاره وتصرفاته، أغمض عينيه بقوة وعصر تفكيره، هناك حل بكل تأكيد، مخرج من هذا الهول، قبل أن يدركوا أنه وحده تمامًا ويقتحموا الوحدة.

ثم لمعت في رأسه فكرة، ففتح عينيه وأخرج سلسلة المفاتيح من جيب البالطو الأبيض الذي يرتديه، ثُرى، أيهم مفتاح الزنزانة؟ إنها المكان الوحيد الآمن هنا.

هكذا فكر قبل أن يرتعد كأنه قد ضربه زلزال حين توقفت خطوات من يطوفون حول الوحدة وارتجت الجدران بنفس الطريقة السابقة.

لماذا يفعلون هذا؟ ماذا يريدون؟

هكذا صرخ بداخله في نفس اللحظة التي سمع فيها أنين

اليوزباشي طاهر، لنأمل أن يكون للبدو من النبل كي لا يؤذوا جريحًا بين الحياة والموت.

اتخذ قراره سريعًا وعاد إلى طاهر ورمى ذراع الأخير فوق كتفه وانحنى ليرفعه، بصعوبة بالغة نجح في أن يجعله ينهض بينما فتح طاهر عينيه الزائغتين محاولًا أن يفهم ما يحدث له، أسرع به للزنزانة محاولًا تجاهل اعتراضات وتأوهات الضابط المسكين الذي أشار للدفتر الملطخ بالدماء، تمكن طاهر من التقاط دفتره الملطخ بالدماء من فوق المكتب الصغير، انصاع بعدها لغريب وهدأت حركته، أجلسه الأخير أمام القضبان وطفق يجرب المفاتيح حتى نجح في فتح القفل ثم أمسكه بعدها من أسفل إبطيه وسحبه إلى داخل الزنزانة.

لن تطولهم سيوف البدو هنا ولن يجازفوا بإطلاق النار من وراء الجدران أو حتى من بين القضبان لو اقتحموا الوحدة خشيةَ إصابة الفتاة، هكذا دارت أفكار غريب وهو يضع طاهر في منتصف الزنزانة، في مربع النور الساقط من النافذة والذي تقل قوته كلما ابتعد عنه، مصدر الضوء الوحيد في المكان، أوصد بابها بالمفتاح وتقهقر بعدها للجدار المقابل للمدخل ليلتقط أنفاسه، الأرضية الخشبية كانت باردة الملمس، خصوصًا وأن الجدران لم تكن محكمةً بما يكفي، فقد تسلل الهواء البارد عبر شقوقها مصدرًا صفيرًا كابوسيًا وتعبأ المكان كله برائحة الصدأ التى لا يعرف لها مصدرًا.

لكن الرائحة بالفعل كانت بشعةً، كأنه قد اعتلى مكب نفايات، تماسك غريب وتغلب على شعوره بالغثيان بصعوبة، انتظر حتى سكنت الحركة بالخارج وبدأ يستعيد رباطة جأشه قبل أن يلتفت

إلى الركن الأيمن البعيد عن القضبان حيث تجلس الفتاة وقال:

-فيه أمل في التفاهم مع أهلك؟

انكمشت الفتاة أكثر مما كانت عليه لتصدر السلسلة صليلها الخافت وخرج بكاؤها مكتومًا يقطع القلوب، تلاه صوت يأتي من منتصف الزنزانة، وبالتحديد من اليوزباشي طاهر الذي كان يرقد في مربع الضوء الوحيد، صوت أنفاسه مبهورة وكلماته غير مفهومة، لكن غريب شعر أنه قد بدأ يفيق، ذهب ليفحصه فوجده قد بدأ يستعيد وعيه، شعر ببعض الاطمئنان، فوجود ضابط ذي خبرة مثل التي يمتلكها طاهر في هذا الموقف أمر جيد، حتى لو كان بمثل حالته.

كطبيب متمرس انحنى ليقيس نبض اليوزباشي وحرارته وهو يقول:

-حمد الله على السلامة يا طاهر أفندي، قلقنا عليك.

فتح طاهر عينيه بصعوبة ودقق في وجه غريب لكن ذاكرته لم تسعفه قبل أن يجول ببصره حوله محاولًا استنتاج المكان، الكثيرون يعتمدون عليك يا غريب، فتاة مسلسلة كالعبيد وضابط جريح يصارع الموت.

-حاول تفتكر، إيه اللي حصل هنا يا جناب اليوزباشي؟

هكذا سأل غريب لكن تعبير وجه طاهر كان عجيبًا، لم يكن ألمًا بقدر ما كان هلعًا.

-فيه ألم؟ حاسس بإيه؟

أمسك طاهر بذراع غريب بما أُتيح له من قوة وجذبه ناحيته وهو يهمس بشيء، لم يقاومه غريب وأخفض رأسه كي تصبح أذنه أمام فمه، وأنصت.

-لازم نخرج من هنا.

قالها له طاهر ضاغطًا على كل الحروف، وضاغطًا على معصمه، لم يغير غريب وضعه وهمس مجيبًا طاهر:

-ليه؟ البدو حوالينا في كل مكان، والواضح إنهم ناويين ياخدوا بنتهم بأي طريقة وبأي خسائر، حتى لو قتلونا كلنا.

جذبه طاهر أكثر حتى شعر غريب بأنفاسه الحارقة تلهب طبلة أذنه قبل أن يقول ما جعل شعر غريب ينتصب من رأسه لقدميه:

-مفيش بدو هنا.

حدق غريب بوجه طاهر بدون فهم مما جعله يكرر:

-مفيش حد بره.

بأصابع مرتعشة دامية مد طاهر يده الممسكة بالدفتر إلى غريب ثم فقد الوعي مرةً أخرى بعد أن استنفذ كل طاقته، تحول غريب لتمثال بعد سماعه لهاتين الجملتين، عقله انطلق بكل طاقته، يقوم بترتيب المشاهد وتحليل الألغاز التي لم يجد لها تفسيرًا من قبل، والآن فقط بدأت الخيوط تتصل.

هل رأى دليلًا واحدًا على وجود البدو؟

هل رأى من يدق على الجدران؟

هل رأى خطرًا بالفعل خارج الوحدة؟

من الذي يفعل كل هذا إذن؟

سعداوي؟

مد يده ليلتقط الدفتر الذي أعطاه طاهر إياه فوجده دفتر أحوال بختم رسمي، تجاهل جلجلة السلسلة وراءه وفتحه، وأول ما قرأه، في الصفحة الأولى، كان تقريرًا موجهًا لقيادة الجيش في هذه المنطقة:

«بمعجزة من السماء تمكننا من الإمساك بها، وهذا قبل أن أخسر كل رجالي في تلك المعركة غير المتكافئة، تبدو للوهلة الأولى كفتاة منكسرة، لكنها أبعد ما يكون عن هذا، لديها مكر لا قبل لنا به، جعبتها لا تخلو من الحيل، لا أعرف إن كان سحرًا أم قدرات خاصة تستخدمها لغرض لم أفهمه في بداية الأمر، حيل أنعمت عليها الصحراء بها في خلوتها في تلك الغرفة التي اكتشفناها مدفونة في أرض السجن الجديد».

تجمد الدم في عروق غريب ولم يستطع تحريك سوى عينيه في مقلتيها.

هل تحركت؟ هل تنظر إليه؟ هل تعلم ما يقرأ الآن؟

ابتلع ريقه... وأكمل:

«حتى البدو كانوا يعملون لها ألف حساب ويمنعون الأغراب من الاقتراب منها، ومن هنا نشأت العداوة بيننا وبينهم، كنا نظنهم يريدون إبعادنا عن أملاكهم أو أنه كان صراعًا لفرض السلطة، لكنني

اكتشفت الآن أن غرضهم كان أن يمنعوها من الهروب، أن يحمونا ويحمون أنفسهم.

أدركت تفسير تلك اللافتات المنقوش عليها آيات من القرآن الكريم، لكن إدراكي هذا جاء متأخرًا، ولهذا فتخليها عن حريتها بهذه السهولة يجعلني أشك في أنها قد استسلمت لنا بمحض إرادتها، وبعد أن خرجت لنا من تلك الغرفة التي كانت مغلقة بإحكام وتركتنا نسلسلها بلا أدنى مقاومة، بعد أن رأيت جنودي يغتالون بعضهم، بعد أن كانت تغني وتضحك في جنون، أدركت أن لها هدفًا أكثر خطورةً من بقائها في تلك الغرفة التي كانت محجوبةً عن الأعين لسنين لا أعلم حصرها.

مجنونة، ساحرة، جنية، غولة، لا أدري حتى اسمها أو كينونتها، لكني أكرر، هي ليست كما تبدو، ولذلك، إن وصلكم خطابي هذا وجئتم لإنقاذ من تبقى منا، فرجاءً، بكل ما هو غالٍ ومقدس عندكم، لا تدخلوا الزنزانة فُرادى، لا تدخلوها من أساسه، حتى لو كان آخر واحد منا يلفظ أنفاسه الأخيرة أسفل قدميها،

فقط... اقتلوها».

«معظم الجراح في الظهر أو ذبح في الرقبة»، هكذا تذكر غريب ملحوظته العجيبة، لقد جعلتهم يقتلون بعضهم بعضًا، ثم تجمد الدم في عروقه حين سمع صوت السلسلة... إنها تتحرك، لكن الصوت جاء من مكان مختلف عن مكانها الذي كانت به حين دخل، وباستنتاج بسيط أدرك أنها... تقترب.

وهنا أدرك أخطر نقطة، أدرك أن الخطر الوحيد في هذا المشهد

موجود في هذه الزنزانة، وسواء كان بكامل إرادته أو بخدعة منها، حيلة جعلته يقتنع أن خطرًا يحوم به، فالنتيجة واحدة: لقد حبس نفسه معها.

وكان آخر ما سمعه...

... «شمس».

(11)

بحلقت في شاشة هاتفي بعد انتهاء الفيديو، كلمة «شمس» ترن في أذني وأنفاسي مبهورة من هول ما سمعت، رغم أنها لم تكن أكثر حكايات غريب عنفًا أو قسوةً لكنها نجحت في إثارة توتري لأقصى حد، ثُرى، كيف ستتحول لواقع؟ تضاعفت علامات الاستفهام وتكاثرت الألغاز حتى صار الأمر مبهمًا تمامًا، أغلقت هاتفي ورجعت بظهري لأستند على الأريكة، أفكر.

هل سيبدأ الأمر فى التحسن بعد هذه الحكاية كما كان مكتوبًا أسفل المقطع أم سيستمر في التدهور؟ ولو كانت هذه الحكايات على لسان غير غريب - وهو الشيء المؤكد وإلا لكان عمره فوق المائة عام - كيف نجا من رواها مما مر بها ليحكي ما رآه؟

فكر يا فتحي، فكر، ركز في التفاصيل، ما الذي لا تراه في هذه الصورة؟

عضضت شفتي السفلى غيظًا، هذه فرصتك الأخيرة يا غريب، لو لم تنقشع هذه الغمة وعادت لي زوجتي... لقتلتك.

هززت رأسي ونهضت لأجيل بنظري في أنحاء شقة والديّ، عمل شاق ينتظرني، أخذت نفسًا عميقًا وشمرت عن ساعديّ وانطلقت أنظف البيت من الأتربة والغبار وأعيد نظامها وتوزيع الأثاث كما كان، رفعت الملاءات البيضاء من فوق الكراسي والأرائك وذهبت للمطبخ لآتي بممسحة، رفعت السجاجيد وجمعت أظرف الخطابات المكدسة لأضعها على...

مهلًا...

هذا الخطاب...

ببطء، وضعت الممسحة جانبًا والتقط مظروفًا عليه خط يد أعرفه جيدًا، قمت بفضه بأطرافٍ باردة، وقرأت ما كان أكثر هولًا من كل ما رأيته في الشهور السابقة.

«فتحي،

أنا بعتلك الجواب ده علشان أنا اتمنعت إني أكلمك، وبابا خلاني أغير نمرتي، وبيراقب تلفوني، سامحني يا فتحي، غصب عني، أنا اتخانقت معاه خناقة كبيرة أوي يوم قراية الفاتحة وقرر إني أسافر لعمي هولندا الأسبوع اللي جاي.

إمضاء: زينة».

ظللت واقفًا كالتمثال لوهلة لا أدري طولها، أحدق في كلماتها، عيناي تدوران في مقلتيهما تراقبان محيطي، عقلي يعمل كمفاعل نووي، يقوم بحسابات معقدة عشوائية لا فائدة منها، لو كانت هذه الرسالة من زينة، فمن التي... ؟

قلبت الجواب والمظروف نفسه بحثًا عن تاريخ أو طابع بريد، لكن لم أجد أيًا منهما، من جاء بهذا الخطاب لا بد أنه سلمه بنفسه.

ثم سمعت الأنين.

وضعت الجواب في جيبي واستدرت لأواجه غرفة نوم أمي حيث ترقد... زينة؟

-فتحي... ! الحقني!

هكذا جاء النداء، صوتها واهن، مرتعش، عصرت قبضة قاسية قلبي، ورَقَّ لها، حتمًا الأمر غير ما تُسَوِّل به نفسي، اعقل يا فتحي، إن خطته واضحة، هو يسعى لدمار بيتك، لا تسمح له، لا تعطيه الفرصة كي يصيبك بالشك والجنون.

استجمعت شتات نفسي وذهبت إليها، دخلت غرفة أمي لأجدها نائمة، من نادى عليّ إذن؟ لا يهم. مسحت على شعرها البني الثائر وملامحها التي أحفظ كل تفصيلة فيها، رفعت بعدها الغطاء إلى كتفها ثم ألقيت بالجواب في سلة المهملات وخرجت، خرجت بعاصفة مهدها صدري.

***

أمضيت الليل بين النوم واليقظة، أفكر في السيناريوهات المطروحة أمامي، كيف يفعلها؟ هل كل هذا المخطط الدقيق من صنع ذلك الحلاق الخمسيني المريب؟ وإن كان كذلك، فما المثير في حياة نكرة مثلي حتى يجعله يتكبد كل هذه المشقة ويخلق لي هذا الجو السيريالي المعقد؟

لا بد أن هذا الخطاب كان جزءًا من خطة زينة للتحايل على أهلها، أليس كذلك؟ هو التفسير الوحيد.

تركت الفراش وذهبت لسلة المهملات لأخرج الخطاب، تأكدت بعيني أنه موجود ولمسته بيدي وقارنته بخط يد زينة من على بطاقة قديمة، اتصلت برقم هاتفها القديم فوجدته غير موجود

بالخدمة، هذا عجيب، هل قطعت علاقتها بأسرتها بهذه القسوة وهذا الحسم؟ هذا شبه مستحيل.

مزقت الجواب وألقيت به في السلة مرةً أخرى ثم عدت للفراش، استلقيت بجانب زينة، ألقيت عليها نظرةً أخيرةً لأطمئن أنها بخير ثم أغلقت عينيّ.

وفتحتهما بغتةً حين سمعت...

تشك تشك تشك.

هذا صوت مقص، ينفتح وينغلق بسرعة... ثلاث مرات.

انتصب شعر جسدي كله وهززت رأسي لاعنًا غريب واليوم الذي رأيته فيه، مددت يدي المرتعشة لألتقط هاتفي وأسلط نوره في أنحاء الغرفة، أريكة قديمة مغطاة بملاءة بيضاء ترقد فوقها حقيبتنا، دولاب عملاق مكتظ بملابس أبويّ القديمة يليه ركن مظلم، سددت ضوء الهاتف هناك، طول المسافة لا يساعده على إنارة الركن بصورة كافية، لكني لمحت شيئًا يقع... بلا صوت.

من الطبيعي في موقف مثل هذا، وكأي زوج يحترم نفسه، كان يجب أن أنهض لأرى ما الذي وقع هناك، اكتشفت لحظتها أن ما سمعت ورأيت في الأسابيع والشهور الماضية قد استنفذ أعصابي، ولهذا فقد انحبست أنفاسي وارتعشت مفاصلي وأنا أترك الفراش لأخطو بحذر ناحية الركن.

اقتربت، مسددًا ضوء هاتفي، وغيرت اتجاهي كي أرى بشكل جيد ذلك «الشيء» أخضر اللون الذي وقع على الأرض، وحين رأيته

أدركت أن حكايات غريب السبعة لم تنتهِ.

فقد كان مئزرًا أخضر...

تقهقرت بظهري لأستلقي على الفراش وعينيّ تحدقان في ذهول بالمئزر كأنه سيطير منقضًا عليّ في أي لحظة، سحبت الغطاء فوق وجهي وأغلقت عيني حتى أعبر هذه الليلة الغبراء... لكنها قررت الاستمرار.

-صاحي؟

جف حلقي وفتحت عيني بغتةً حين سمعت سؤال زينة، لكني لم أجبها بالطبع.

-صاحي؟

كررت سؤالها بنفس النبرة وللمرة الثانية لم أرد، شيء ما في الآلية التي قالتها بها أصابني بالشلل.

-صاحي؟

-صاحي؟

-...

هكذا أخذت زينة تكرر حتى كدت أن أبكي.

***

استيقظت زينة وكأن شيئًا لم يكن.

خرجت من غرفة النوم الرئيسية لأجد الشقة وقد جعلتها زينة

قصرًا، قامت بترتيب الأثاث وتلميعه وتنظيف الأرضية والستائر والنوافذ، حتى الشرفة، مسحتها ووضعت فيها أصائص زرع وورودًا لا أدري من أين أتت بها.

ذهبت للمطبخ حيث وجدتها تضع الرتوش الأخيرة لإفطار ملوكي على المائدة المربعة الصغيرة، رائحته أسالت لعابي لكن الأجمل كانت رائحتها هي، كأني دخلت الجنة، هل عادت زينة إليّ؟

-ما هذا؟ «قلتها بالفصحى مازحًا» صباح الخير مولاتي.

-صباح العسل، نمت كويس؟

-عسل؟ ماشي، بتحسسيني ساعات إني متجوز سواق توكتوك.

جلست بالمائدة وتأملت الفطور الشهي ثم نظرت إليها لأتأملها، ثم فُوجئت بشعرها القصير.

-قصيتي شعرك إمتى؟

التفتت إليّ متعجبةً وهي تمسك أطراف شعرها البني القصير.

-هو أنا قصيته؟ مش فاكرة.

قالتها بشرود قبل أن تستعيد روحها المرحة التي أعشقها وجاءت بطبق سلطة خضراء طازجة ووضعتها بيننا على المائدة، نظرت إليّ بعينيها البنّيتين الواسعتين وسألتني في دلال:

-عاجبك؟

بالطبع لا، فأنا أفضل شعرها طويلًا وملتويًا، ثائرًا مثل روحها، لكني لم أرد أن أفسد اللحظة.

-كل حاجة عجباني، الفطار والريحة الحلوة والنضافة.

ابتسمت وبدأت في تناول السلطة فترددت قبل أن أسألها:

-زينة... فاكرة كنتي عاملة إزاى اليومين اللى فاتوا دول؟

اكفهر وجهها بغتةً وتسمرت بدها الممسكة بشوكة الطعام ثم شردت في اللقمة وقالت:

-الأكل ده نعمة كبيرة أوي يا فتحي.

تسمرت يدى أنا الآخر بعد جملتها تلك، يا ليتنى ما سألت، تجمد الموقف على هذا الوضع، كلانا ممسك بشوكة الطعام، زينة محدقة بالشوكة وأنا محدقٌ بزينة، حتى...

نهضت زينة بدون سابق إنذار وتركت المطبخ.

لقد أفسدت اللحظة يا غبي!

***

لم أذهب لعملي بالطبع، أخبرت عم تؤ بهذا وكان - وعلى غير العادة - متفهمًا، بل وأخبرني أنه سيكون بالجوار لو احتجت شيئًا.

مرت الساعات الأولى في سلام، بدون رائحة ولا قذارة ولا أحداث عجيبة، جلست بالصالة أمام اللابتوب أقوم بالرد على الإيميلات والعمل على بعض الملفات بينما دارت زينة في أنحاء البيت مثل النحلة، لكن كلما انغمست فيما أفعله أنتبه على دقات ثلاث، أرفع عيني لأرى زينة تقف أمام باب غرفة ما، تنتظر شيئًا... الإذن؟ قبل أن تدخل الغرفة.

هززت رأسي يائسًا من الوصول لتفسير، سرعان ما غرقت فيما أفعل ولم أنتبه إلى مرور الوقت حتى صرنا عصرًا، وحين رفعت عيني عن اللابتوب لمحت زينة تنظر إليّ من المطبخ، ابتسمت لها لكنها أدارت وجهها عني وخرجت للشرفة، مططت شفتيّ ونهضت لأغتسل، ذهبت لغرفة النوم لأجلب ملابس نظيفة وحين التفتُّ لأخرج لمحت زينة مرةً أخرى، تنظر إليّ من الشرفة، وما أن أوليتها وجهي حتى أعطتني ظهرها لتكمل تنظيف.

هرشت فروة رأسي الخشنة قبل أن أزفر بحنق وأذهب للحمام.

في المساء عرضت عليها الخروج لكنها أخبرتني أنها تعِبة وستخلد للنوم مبكرًا، انتظرت حتى استلقت على الفراش وأغلقت عينيها قبل أن أقبلها وأخرج، جلست في الصالة وفتحت اللابتوب لأشاهد فيلمًا، كان يجب أن أصرف تفكيري عما كان يحدث وإلا كنت سأجنّ، لم يكن هناك سوى مصباح يتيم يعمل وبقية النجف والمصابيح المعلقة كانت بحاجة لمصابيح جديدة، اضطررت أن أنير الحمام والمطبخ وأترك أبوابهما مفتوحة.

في منتصف الفيلم شيء ما جعلني ألتفت لغرفة النوم، وهناك، وفي ضوء الأباجورة العتيقة الرابضة على الكومود، رأيت زينة، مستلقية على جانبها الأيمن، تحدق بي، ابتسمت لها متوقعًا أن تستدير وتعطيني ظهرها كما كانت تفعل طيلة اليوم، لكنها خالفت ظني، ظلت مبحلقة بي، بدون أن يطرف لها رمش، حاولت الاحتفاظ بابتسامتي لكنها ذابت رغمًا عني.

هذا يكفي!

أغلقت اللابتوب وذهبت إليها لأقف أمامها، عينيها الآن مغلقة، ترددت إن كان يجب أن أوقظها أم لا وإن فعلت فماذا أسألها؟ ثم لمحت هاتفها، التقطه وأطفأت نور الأباجورة ثم خرجت من الغرفة وأغلقت الباب كي لا تسمعني.

حين صرت في الصالة اتصلت من هاتفها رقم زينة القديم مرةً أخرى فوجدته غير موجود بالخدمة، تدبرت للحظة، ثم طرأت لي فكرة، ولجت عبر حساب الفيسبوك الخاص بزينة - والذي هو تحت اسم «زينة نيو» - وبحثت باسم زينة سراج، وحين ظهرت النتيجة سرت في جسدي كله رعشة مزلزلة وتخدرت أطرافي، فقد كنت أنظر إلى صورة زينة وخلفها أحد الطواحين الهولندية وقرأت مكان إقامتها الجديد: «أمستردام»، وكي يتجسد الكابوس بكل تفاصيله رأيت أن تاريخ الصورة بعد زواجي بشهر.

زواجي؟

بمن؟

من التي ترقد في فراش أمي؟

ومن الذي يفتح باب الغرفة الآن؟

لم أجرؤ أن أنظر خلفي، بل رميت باب الشقة بنظرة جانبية وسبيت نفسي لأني لم أفصل موضوع الخطاب أو أسألها عنه، ألهذه الدرجة أنا متشبث بها وبحلمي معها؟ ثم تجمدت مكاني كأن قدمي قد دقت بالأرض، وهذا حين سمعت...

رنين الهاتف.

بحذر شديد التفتُّ لأواجه غرفة النوم، ورأيت الباب ينفتح ببطء لتستقبلني لوحة سوداء.

وحين صار مفتوحًا على مصراعيه، ومن ظلمة الغرفة سمعت صوت الرنين مرةً أخرى، رنين مميز لهاتف أرضي، ولا داعي للذكر أنه لا يوجد لدينا هاتف، لكنه لا يجب أن أكون عبقريًا كي أربطه بحكاية غريب الثالثة... قصة «المنسيين».

استمر الرنين لدقيقة طويلة مزقت أعصابي، قبل أن يصمت، لكني لم أتمكن من تنفس الصعداء لأنني سمعت من يقول: «ألو».

تلاها صمت.

ابتلعت ريقي... لقد كان هذا صوت زينة.

ثم صوت الصليل... يا إلهي... إنه أقرب لحركة سلسلة تقيد شخص ما، مشهد بعينه استرجعه ذهني، مشهد لم أره بل سمعت عنه، زنزانة وحيدة في وحدة عسكرية.

«ألو؟»

-هو إيه اللي ألو؟

هكذا صحت في اللحظة التي سمعت فيها صليل السلسلة مرةً أخرى، ثم صوت أنين السرير جراء حركة ما فوقه، لقد نهض من كان راقدًا عليه.

-ألو.

كان هذا النداء أقرب، يصحبه صوت السلسلة.

لا! هذا لا يحدث حقًا! أنا لن أفقدك!

هكذا صرخت بداخلي قبل أن ألتقط الممسحة المستندة على الحائط بجواري وأقترب من الغرفة، تدريجيًا تكوّن لدي إحساس أن هناك من يقف في الغرفة أمامي، في الظلام.

ثم شممت الرائحة، والتي كانت أكثر بشاعةً مما شممته من قبل، قاومت إحساس الغثيان وتراجعت خطوة حين رأيت الهيئة تقترب، بحذر تحركت ناحية باب الشقة وعيني لا تترك هذا الذي يخرج ببطء شديد من غرفة النوم، تضاربت مشاعري بين خوف على زينة وخوف... منها، وحين اتضحت تفاصيل ذلك الشيء ورأيت زينة تخرج لي حافية القدمين انقلب خوفي إلى ذعر، بعيون جاحظة راقبتها وهي تمد يدها إليّ كأنها تمسك بشيء ما تريد إعطاءه لي، تخطو تجاهي بوجه خالٍ من التعبيرات الآدمية.

-... تليفون علشانك.

وتقدمت تجاهي بخطوات واسعة.

تصلبت مفاصلي ولم أتمكن حتى من أن أتقهقر مبتعدًا عنها، شيء ما أخبرني أنه من الأفضل أن أجاريها، مددت يدي لها لألتقط التليفون الوهمي وأضعه على أذني قائلًا:

-آ... ألو.

«يا شمس يا شموسة!».

هكذا اخترقت الكلمة أذني عبر التليفون الوهمي كالرعد لدرجة

شعرت بها تزلزل الأرض أسفل قدمي، طنين مدوٍّ أصابني بالصمم المؤقت لكنه لم يمنعني من رؤية زينة تفتح فمها على مصراعيه كأنها تصرخ أو تضحك، لم أدرِ أيهما.

ثم بدأت ترقص، بدون موسيقى، تتمايل وتدور حولي بينما تلاشى الطنين من أذني وأنا أتابعها بعينيّ الجاحظتين، تدريجيًا بدأت كلمات الأغنية تتشوه وتفقد معناها، لكن تلك الكلمة اللعينة ظلت تتردد... «شمس... شمس... شمس... »كأن هناك حولي قبيلة من عبدة الأوثان يرددون ترانيم إلههم المغمور.

ثم شعرت أن حجم زينة يزداد، لا لم يكن يزداد بل... هل هذه يد ثالثة؟ لا حتمًا أهذي، وهذا الشيء الذي يخرج من جانبها الأيمن، بالتأكيد ليس ساقًا ثالثة، ثم تجمدت الدماء في عروقي حين لمحت وجهًا ثانيًا ذا ملامح شيطانية يبتسم لي من بين خصلات شعرها القصير لأدرك لحظتها ما يحدث.

إن زينة تتحول أمام عيني... إلى ذلك المسخ الذي كان يجوب عنبر «د».

-زينة... لاء... كده كتير.

قلتها وأنا أتقهقر إلى باب الشقة بينما توقفت زينة عن الرقص وفتحت عينيها عن آخرهما وفردت ذراعيها لتهجم عليّ وهي تضحك.

-بتحبني يا فتحي؟ بتحبني؟

انقضت على الباب لأفتحه وأخرج من شقتي وعمارتي وشارعي

بأكمله، لم أتوقف لأنظر ورائي إلا عندما بلغت ناصية الشارع الرئيسي وتوقفت لألتقط أنفاسي.

ثم فزعت مرةً أخرى حين...

-مالك يا باشمهندس؟

وبالرغم من غيظي لصياحه هكذا، لكني لم أكن أتخيل أن أسعد برؤية وجه العم تؤ كما سعدت لحظتها، ليس هذا فحسب، بل أن ما قاله لي بعدها، تلك الكلمة المعجزة، كان بها حل اللغز كله.

(12)

حكيت لتؤ كل شيء، والذي تأكدت أنه بالفعل - لسخرية القدر - رفيقي الوحيد، هذا بالإضافة إلى أنه مرتبط نوعًا ما بقصة قطع الطريق سبع مرات، هو من حذرني منها على الأقل، وقفنا في شارع هادئ بالمعادي، تظلله الأشجار، وقصصت عليه حكايات غريب وكيفية تكرارهم في حياتي الواقعية، حتى اللحظة التي صرت فيها محرومًا من العودة لبيتي.

-بس يوريني إزاي هيخليني أسمع قصته السادسة.

كان تعليقي فما كان سوى أن قال:

-تؤ، إنت صعبان عليا يا باشمهندس والله، طب... إنت مش فاكر زعلت حد أو عاديت حد؟

-حد مين يا بني آدم اللي في إيده يعمل كل ده؟ دي عايزة ساحر.

مط شفتيه وهو يمد يده ليلتقط علبة السجائر من فوق التابلوه، من بين أغصان الأعشاب البرية، حاول بعدها أن يشغل الراديو وهو يغمغم بشيء ما.

-بتبرطم بتقول إيه؟ مش ناقصة هي!

-هو صحيح إحنا سمعنا وشفنا حكاوي صعبة على الطريق، بس قصة إنها بتحصلك في الحقيقة دي غريبة أوي.

هنا جحظت عيناي مرةً واحدة وقد جعلني كلامه والرقم «001» الذي أنار شاشة الراديو أن ألاحظ نقطةً في غاية الأهمية.

-يا نهار أسود! ليكون اللي بيحصل...

بترت جملتي من هول ما توصلت إليه، نظر إليّ بدون فهم، فما كان مني سوى أن صحت به:

-عم تؤ... هَذّيك مرتب شهر كامل لو خليتني أشوف غريب تاني.

-تؤ... يا باشمهندس قلت لك ميت مرة...

-لا أصل ولا فصل! هتطلع بينا نمشي في الشارع ده سبع مرات ولا أروح أجيب عربية من أي مصيبة؟

هز رأسه بحركة الهنود البندولية التي يشتهر بها وهو يدير المحرك:

-بس هتعمل إيه لما تشوفه تاني؟ تسمع الحكاية السادسة؟

هززت له رأسي ورجعت بظهري على الكرسي.

-ما أنا سمعت السادسة واللي كان كان يا مرسي.

-امتى؟ إنت حكيت لي خمسة بس.

سألني مذهولًا لأجيبه بنبرة بطيئة مختنقة:

-الحكاية السادسة هي حكاية زينة.

قلتها وأنا أحدق برقم «001» الذي يطل عليّ من الراديو لأقول بحزم:

-سواء رحت له تاني ولا لاء، سواء قالها لي بلسانه أو عن طريق وسيط، هسمع الحكايات السبعة يعني هسمعهم يا مرسي، كل ده ماشي حسب ما هو عايز، عد تنازلي مفيش حاجة في إيدي أعملها

علشان أوقفه.

قلتها وشردت بعيدًا، بينما ومضة أمل خافت تلمع من بعيد، نبتة فكرة جهنمية.

-إلا حاجة واحدة بس.

***

وكما حدث في المرات السابقة، انقلب حال الجو فصار غائمًا وسكنت الأصوات حتى شعرت أن الدنيا كلها قد كتمت أنفاسها وهي تراقبني أقطع الشارع للمرة قبل الأخيرة، في نهاية الدورة السادسة، حين بلغنا نهاية الشارع الذي تحيط به فيلات معظمها مهجور، التفتُّ للعم تؤ، ممتنًا، رأيت في عينه قلقًا حاول أن يداريه، لكن قلقي كان أضعافًا، اهتزت ثقتي بخطتي الباهتة، ماذا لو كنت مخطئًا، أيمكنني المجازفة بكل شيء هكذا؟ بزينة؟ بحياتي كلها؟

ربت تؤ على يدي وأدار المقود لنقطع الشارع للمرة السابعة... والأخيرة.

استدرنا بالسيارة وعدنا لنسير تحت أفرع الأشجار، في هدوء يصيب بالصمم، السماء فوقنا، غائمة، بتكوينات سحابية عملاقة كوحوش أسطورية تحيط بكوكبنا وتنظر إلينا من وراء الأفق.

لكني كنت منتبهًا هذه المرة، شحذت حواسي كلها وقفزت بعيني من كادر لآخر، أدقق في التفاصيل، محاولًا فك طلاسم هذه المعجزة.

ثم رأيته، ذلك الظل الدقيق الذي كان يقف فوق سطح عمارة بعيدة، غير محدد الهيئة، دققت النظر فيه، ليبدو لي كشخص يقف

على حافة سور السطح، وكلما قطعنا مسافة في الشارع في دورتنا السابعة كلما اختفى ليظهر على سطح عمارة أقرب منا.

-هتعمل إيه لما تشوفه؟

سألني وهو يغير وضع ناقل السرعة، رمقته بنظرة جانبية، بدون إجابة حاسمة، فما كان لدي سوى قشور لخطوات عشوائية لا ترقى لخطة محكمة، ثم عدت لأراقب ذلك الكيان الذي كان يقترب منا حتى بدأ الخوف يتملكني، فكرت أن أسأل تؤ إن كان يرى هذا الشيء مثلي لكن تركيزه كله كان في القيادة وفي الأسوار المحيطة بنا والتي ظهرت عليها لافتات آيات قرآنية، وفي نفس اللحظة التي اختفى فيها ذلك الذي كان يقترب منا خلف أفرع الأشجار العالية قال تؤ مشيرًا بحماس لسور الفيلا التي اختفى فوقها الكيان:

-أهوه... المحل أهوه.

تقلصت معدتي حين رأيت لافتة نيون خضراء تقول: «صالون غريب» والمعلقة فوق زجاج الفاترينة العريض، دكان صغير ملتصق بسور الفيلا، ضوء العصاري بالكاد كان يكفي ليعطي محتوى المحل المظلم تلك الهالة الكئيبة لكنه ساعدني على رؤية هيئة أسطى غريب المنتصبة في سكون بجوار الكرسي الوحيد.

توقف تؤ على بُعد مسافة آمنة وجذب فرامل اليد ثم نظر إليّ، لأبادره:

-متخفش، مش هقولك تدخل معايا.

-تؤ، ما أنا لفيت معاك الشارع سبع مرات واللي حصل حصل.

-معلش... أقعد في العربية وخليها دايرة.

أخذت نفسًا عميقًا وفتحت الباب.

-مرسي... وصيتك... لو مرجعتش روح لمراتي، وقولها إني حاولت.

-انزل يا باشمهندس.

قالها في ضجر لأبحلق في وجهه وقد عاد إليّ اشمئزازي منه وقاومت رغبة عارمة في البصاق عليه، لكن في نهاية الأمر هو على حق، فمن تعيش في بيتي الآن ليست زينة، ارتجلت من السيارة و «رزعت» الباب في وجه تؤ ليلتفض في مكانه.

حليف مستفز.

تجاهلته واستدرت لأدخل أغرب مكان في الكون.

كي أسترد حياتي.

***

استقبلني صليل الأصابع المعدنية المعلقة فوق الباب، انحنيت لأتفاداها وأنزل درجة السلم، وقفت في جو سيريالي مصدر إضاءته الوحيدة هو نور العصاري الذي يأتي عبر الفاترينة ومصابيحها النيون، الكرسي في مكانه وكذلك غريب، يقف في كياسة رئيس خدم ملكي، الضوء لا يصل لأعلى من كتفه، تاركًا رقبته ورأسه المثلث في شبه عتمة، لكن النور القادم من خلف الستارة الخضراء المسدلة وراءه مكنني من رؤية إطار هيئته. انتظرت أن يحييني بـ«بونچور مسيو» الشهير بها لكنه ظل صامتًا.

-اللي نفسي أعرفه، إزاي نجحت تخلي القصص حقيقة؟ سحر؟

هكذا سألته وأنا أتحرك لأقف أمام الأريكة، محافظًا على المسافة بيننا، لكنه لم يجبني، بل ظل عاقدًا كفيه أمام وسطه، رأسه فقط هو ما تحرك ليتابع تحركي.

-ما هو يا سحر يا عبقرية ملهاش مثيل، عبقرية نجحت إنها تخليني أسمع القصص الستة رغم إني كنت مقرر مسمعش حاجة منك بعد تالت واحدة، مرة من خلال مراتي ومرة مرسي السواق ومرة من خلال اليوتيوب، والقصة السادسة بقى، هي أكتر حاجة محيراني.

وللمرة الثانية لم يجبني، ولم يكن ينظر إليّ، بل إلى الستارة الخضراء التي تخفي خلفها الغرفة الصغيرة الملحقة، وضع رأسه كان يشي بهذا.

-مين اللى أنا اتجوزتها يا غريب؟

ظل صامتًا، ينظر ناحية الستار، حاولت اختراق الظلام الذي كان يكتنف وجهه باحثًا عن ملامح «إستيفان روستي» التي أعرفها، لكن بلا جدوى، ملامحه كانت مستورة، لقد توقعت أن يدافع عن نفسه، يختلق عذرًا أو ينسج قصة خيالية ما - فهو أمهر من يفعل ذلك - لكن صمته هذا كان أشد وطأةً، ذهبت عني شجاعتي وجنحت للسلم، عله يرأف بحالي.

حلقت الستارة بفعل تيار هواء ما.

-وآخرتها؟ حياتي هتفضل متدمرة كده، إنت مش قلت إنها هتسوء

وبعد كده هتتحسن؟ فين بقى؟ فيه سوء أكتر من كده؟ إيه... في القصة السابعة هتطلع آكل لحوم بشر وتطبخني وتاكلني ولا إيه؟

خفقت الستارة مرةً أخرى، الضوء القادم من خلفها أقل خفوتًا، وغريب لا يزال ينظر إليها.

دعوة؟ هل القصة السابعة هناك... خلف الستار؟ أم كابوسًا أكثر هولًا من كل ما سبق؟

تجاهلتها واستطردت:

-قولي عايز إيه، دمرت حياتي ليه؟

حلقت الستارة مرةً ثالثة، أعلى من المرات السابقة، النور خلفها يكاد يتلاشى.

اللعنة... اللعنة... أدركت أن هناك نافذة صغيرة من الوقت أمامي، فرصة ضئيلة لفهم كل ما يحدث، قبل أن يتلاشى الضوء القادم من خلف الستار، فرصة للخلاص وإصلاح كل شيء أو إنهاء الأمر بلا رجعة.

عضضت على شفتيّ غيظًا ورمقت غريب الذي كان ينظر جهة الغرفة الملحقة، على الأقل هذا ما استنتجته من وضع رأسه، فما كان مني سوى أن التفتُّ إلى الستار متوجسًا، وفي هذه اللحظة سمعت صوت المقص وهو يقص الهواء ثلاث مرات سريعات فالتفتُّ لغريب لأراه قد استدار إليّ، تفاصيله لا تزال غير واضحة من ضعف الإضاءة، لكن في يده يلمع المقص.

هذا هو التشجيع - أو الترهيب - الذي كنت أحتاجه، تراجعت

بظهري ناحية الغرفة الصغيرة، دون أن أرفع عينيّ عن غريب، ورفعت الستار، توقعت أن أرى الغرفة التي كان يحتفظ فيها غريب بشعر زبائنه، لكنني رأيت شيئًا آخر، شيئًا مستحيلًا.

رأيت باب الدكان الخلفي الذي كان ينفتح على...

مدينة كاملة بلا سكان.

***

هناك لحظات في حياة الفرد منا ندرك تمامًا أن أيًا كان ما سيحدث بعدها سيكون أكثر هولًا من كل ما سبق، رغم استحالة هذا في نظرك.

وتلك اللحظة التي خرجت فيها من باب صالون غريب الخلفي... كانت إحداها، كانت كل خلية في جسدي تصرخ كي أعود من حيث أتيت، تخبرني أنني أسير طواعية إلى فخ، إلى هلاك، وفي الجبهة الأخرى من الصراع تقف ضرورة أن أفك طلاسم حكايات غريب كي أنقذ حياتي، أن أفهم الطريق الذي سلكته رغمًا عني والذي ينتهي بهذه البلدة المهجورة.

وقفت أعلى درجات سلم قصير يقود إلى مدق ترابي يسير بين البيوت، مساكن لها طابع نوبي، نظيفة، أغلبها ذات طابق واحد والقليل منها من طابقين، السماء فوقي صافية تمامًا، زرقاء كالبحر الداكن الكسول، الريح ساكنة، وكذلك الأشجار التي تحيط بالبيوت كحراس صامتين، لوحة صماء لا تشوبها حركة ولا يعكرها صوت.

مجرد وجود بلدة كهذه في هذا المكان هو المستحيل بعينه، مدينة

لا تُرى سوى عبر صالون غريب ومن خلال قصصه، لكنها الشيء الوحيد الذي لم يكتمل مغزاه في حكايات غريب حتى الآن.

نظرت إلى أول بيت أمامي، على يسار السلم، طابق واحد، جدران نظيفة وفتحات نوافذ بلا شبابيك، إطارات بلا أبواب، شجيرات خضراء يافعة تحيط به في أكثر من بقعة، لكنه بلا حياة ولا دليل واحد على وجود سكان، نظرت لغيره، نفس الشيء، ثم ثالث، لا يوجد اختلاف، وقفت أعلى السلم واضعًا يدي في وسطي، حائرًا، وقبل أن أقرر العودة سمعت...

«شمس!».

هكذا رجت الكلمة أنحاء البلدة المهجورة وزلزلت الأرض أسفل قدمي، لتشعرني بوجود ما، حياة لا أراها تعيش في تلك البيوت الهاوية.

«شمس!».

ارتعدت مفاصلي مرةً أخرى حين صدت الكلمة الرهيبة بأصوات المئات من سكان لا أراهم.

ووجدت نفسي بين خيارين: أن أنتظر حتى أرى «من» يعيشون هنا، أو أعود من حيث أتيت، خاسرًا كل شيء، لكن محتفظًا بحياتي.

وكان قراري حاسمًا، يكفيني هذا من عالم غريب الغريب، لأعود إليه وأنتزع الحقيقة منه بأظافري وأسناني. لكن حين استدرت لأدخل من حيث خرجت، متوقعًا أن أرى الغرفة الملحقة بالصالون والستار الأخضر الذي يفصلها عنه، في تلك اللحظة الفارقة...

اخترقت أذني وكياني كله «شمس!» أخيرة، ومن شدة قوتها، وكأنها صاعقة ضربت المكان لتدفعني دفعًا إلى...

غرفة ممتلئة بالشعر.

خطوت فوق التل الطري، محاولًا الاحتفاظ بتوازني، متجهًا إلى مصدر النور في الطرف المقابل من الغرفة والذي ظننته الباب المؤدي لصالون الحلاقة، هل كانت الغرفة الملحقة واسعة هكذا من قبل؟ بدأت سرعتي تقل ومجهودي يزيد وأنا أعاني كي أخترق أكوام الشعر التي كادت أن تبتلعني، بدأ شعور بالاختناق يكتنفني وشعور آخر باليأس من جدوى كل ما أفعله.

أين أنا؟

-ها يا مسيو نزهي، تحب أحكيلك عن البلد اللي بتتبني في الشتا وتتهد في الصيف؟ ولا شجرة الجميز اللي الناس بتكتم نَفَسها وهي بتعدى جنبها؟ ولا قصة القط القصير؟

-معلش يا عم غريب، معنديش وقت.

-ولا يهمك، إنت ليك في ذمتي سبع قصص، فاضلك ستة.

تسمرت مكاني بعد أن رنت هذه الكلمات في أذني كأنني في إستديو صوت، أزحت الشعر من أمام وجهي - والذي صار أعلى مني فجأةً - لأنظر إلى مصدر النور أمامي، في الجزء العلوي من الحائط، كأن أرضية الغرفة قد انخفضت أمتارًا، زجاج عريض ووراءه رأيت صالون غريب، منيرًا، بينما كان الغريب نفسه يحلق شعر رأس رجل خمسيني وعلى الأريكة خلفهما يجلس عجوز يطالع مجلة ما،

لاحظت أن الخمسيني ينظر إليّ، ففهمت أنني... خلف المرآة.

ألهذا السبب كنت أراها بلا زجاج؟ ما الذي يعنيه هذا؟

هكذا تساءلت وأنا أنزع الشعر الذي بدأ يتسلل إلى فمي، الرائحة خانقة والحركة صارت في منتهى الصعوبة وقد صرت كمن ينغرس في رمال متحركة، كل خطوة أخطوها يرتفع فوقي مستوى تلال الشعر، لكن كل هذا تضاءلت أهميته حين أخفض العجوز الجالس على الأريكة الجريدة التي كان يقرأ فيها ليقول:

-ما هو ممكن يكون البدو هم اللي عملوا في المهندس ده كده، مش بتقول كانوا في مشاكل مع الشركة اللي كان شغال فيها؟ والبدو برضه معروفين بالسحر.

لحظتها كنت أعاني للتنفس أو التشبث بأي شيء لأصعد فوق تلال الشعر، لكني لاحظت تفصيلة صادمة، دققت النظر في وجه غريب، ذلك الشارب الرفيع وملامح «إستيفان روستي» المنمقة، ولأول مرة ألاحظ التشابه بينه وبين...

-تؤ.

هكذا قال غريب، قالها وهو ينظر إلى عيني مباشرةً وهو يكنس الشعر المنتشر حول الكرسي، لكن رغم المسافة التي تفصلني عنه، رغم أنني كنت على وشك الاختناق، رغم تلال الشعر التي كادت أن تدفنني تحتها، رغم كل هذا رأيت عينيه تخترقان جمجمتي.

-بدو إيه يا رشاد؟ تقصد السواق؟

-أيوه، الأعشاب اللي كان بيحطها في العربية دي ممكن يكون فيها

حاجة.

-إنت لسه مفهمتش.

هكذا قال نزهي لرشاد وهو ينهض من على كرسي الحلاقة، يحرك رأسه يمنةً ويسرة ليقيّم عمل غريب، ويقول:

-فتحي نفسه هو الحكاية الأولى يا رشاد، مش ابتدينا من القصة التانية؟ ما أخدتش بالك إن الناس كلها كانت بتبص عليه كأنه هو نجم الفيلم؟

قالها ليسقط قلبي في قدمي ويقضي على كل ما تبقى لي من أمل وأنا أرى الكابوس الذي كنت أخشاه يتحقق أمامي بحذافيره، ثُرى، أين الخط الفاصل، متى استحوذ غريب عليّ وصرتُ جزءًا من عالمه؟ من المرة الأولى التي رأيته فيها؟ هل خرجت من الصالون ليلتها من أساسه؟

زينة... هل نسيتني وكأنني لم أكن؟

يجب أن أنقذهما، أريد أن أصرخ وأخبرهما بما حدث لي قبل أن ينالهما مصيري نفسه. قبل أن يصيرَا قصتين من قصص هذا «الشيء» الذي ينزل عقابًا أبشع ما يكون بمن يخالف تقاليد الطريق ويسير فيه سبع مرات، قبل أن تنمحي كل ذكرى لهم ويختفي كل دليل على وجودهم.

قطّب رشاد حاجبيه للحظة يحاول أن يفهم ليدفع، بينما قام غريب برفع الستار الأخضر بالشعر خلفه... الشعر الرمادي الذي سقط فوقي.

ومع آخر نفس لي، وقبل أن يدخل الشعر فمي ليسد مجرى الهواء

تمامًا، لمحت رشاد يجلس على الكرسي وغريب يفرد فوقه الملاءة الخضراء.

-ها يا مسيو رشاد، تحب تسمع أنهي حكاية؟

-يعني إيه القط القصير؟

يبتسم غريب بوقار ويقول وهو يهز رأسه مثل الهنود:

-اختيار جميل، عمومًا إنت لك في ذمتي سبع حكايات... هحكيلك القصة التانية... تشرب إيه؟

ثم نادى وهو ينظر إليّ:

-يا فتحي! شاي لرشاد باشا.

وآخر ما رأيت كانت لمعة مقص عملاق يخرج من وسط تلال الشعر... وينغلق عليّ؛ لأفهم لحظتها... من هو غريب. لكن هذه قصة أخرى... قصة أخيرة.

عن الكاتب

مهندس وروائي

الجانب الأدبي

روائي ومترجم دولي له أعمال بالعربية والانجليزية من نوعيات الغموض والخيال والبارانورمال والتشويق ذات رسالة فلسفية / إنسانية.

-رواية "صالون غريب" – دار كيان للنشر

-رواية "دفتر ناعوت" – "ظمأ" - دار العين للنشر

-رواية "دفتر ناعوت" – "ربما" - دار العين للنشر

-رواية "ما أخفاه الرماد" - دار العين للنشر

-رواية "بَزُّ الضيف" – "القَسَم" - دار العين للنشر

-رواية "بَزُّ الضيف" – "العودة" - دار العين للنشر

-رواية "بَزُّ الضيف" – "الميراث" - دار العين للنشر

-رواية "جنينة المحروقي" - دار العين للنشر

-رواية "**The Dark Season Saga**" (خيال ملحمى شبيه ب Amazon Kindle – (Lord of the Rings

-ترجمة لرواية Final Girl Support Group للكاتب جرادي هنيدريكس (الأعلى مبيعاً في أمريكا) – دار كيان.

-قصص قصيرة وأشعار بالعربية والانجليزية

-مفكر وباحث له مدونات فكرية عديدة – علمية وفلسفية وإنسانية.

-سيناريست وGhostwriter

الجانب الرياضي

-سباح وعضو فريق الأساتذة بنادي هيليوبوليس الرياضي المصري.

-حاصل على حزام أسود في رياضة الأيكيدو للدفاع عن النفس وتم تكريمه من قبل السفير الياباني.

-لاعب تزحلق حر على الأمواج.

-لاعب تنس طاولة وألعاب قوى.

الجانب الهندسي

مدير شركة "ستراكتوبيلد" للمقاولات ومتخصص في أنظمة التكييف المركزي وأحد رواد نظام التبريد بالإمتصاص Absorption Chillers.

حساب تيكتوك (الأكثر تفاعلاً):

tiktok.com/@yehya.safwat

حساب فيسبوك:

facebook.com/yehya.h.safwat

حساب فيسبوك شخصي:

facebook.com/yehya.safwat